

١٤٢١ هـ

بُوحُ الْأَسْرَارِ



محمد جبريل



طبع في تونس ١٩٩٨

89
16

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal



سلسلة
شهرية
لنشر
القصاص
العالمي

تصدر عن

مؤسسة دار الهلال

الإصدار الأول:

يناير ١٩٤٩



رئيس مجلس الإدارة

مكرم محمد أحمد

رئيس التحرير

مصطفى نبيل

سكرتير التحرير

محمود قاسم



ثمن النسخة

العدد ٦١٨

يونيه ٢٠٠٠ م • ربيع أول ١٤٢١ هـ

No - 618 - June - 2000

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠

جنهيا داخل ج . م . ع تسدد مقدما نقدا او

بحواله بريديه غير حكومية - اللاد العربية

٣٥ دولارا - امريكا واروبا واسيا وافريقيا

٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولار

القيمة تسدد مقدما بشيك مصرفى لامر

مؤسسة دار الهلال - ويرجى عدم ارسال

عملات نقدية بالبريد

للإشتراك فى الكويت - السيد عبدالعالم يسعوى زغلول

الصفا ص . ب ٢١٨٣٣ (13079) ت . ٤٧٤١١٦٤

الإدارة : القاهرة - ١٦ شارع محمد عز العرب بك (الميشكين

سليمان) ت : ٣١٢٥١٥٠ (٧ خطوط) المكلفات : ص . ب .

٦١ المتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلفرايا :

صور - القاهرة ج . م . ع

ص . ٩٢٧٠٣ hilal u n

ص . ٣٦٢٥٤٦٩ FAX

إهداء ٢٠١٠

توان البريد الإلكتروني •

darhilal@idsc.gov.eg

المرحوم / محمد بن على الدعفس

المملكة العربية السعودية

بوح الأسرار

بقلم

محمد جبريل



دار الملل

الغلاف للفنان :

حلمي التونى

، وانقضت السنة بحوادثها التي قصصت بعضها ، إذ
لا يمكن استيفاؤها للتباعد عن مباشرة الأمور ، وعدم
تحققها على الصحة ، وتحريف النقلة ، وزيادتهم
ونقصهم في الرواية ، فلا أكتب حادثة حتى أتأكد من
صحتها بالتواتر والاستشهاد،

الجبرتي

بسم الله الرحمن الرحيم

بعد حمد الله ، والصلاة والسلام على أشرف أنبيائه وأعز
رسله ..

هذه سيرة ولى الله فرج خليل ، الشهير بابن شفيقة ، منذ
ميلاده إلى ما بعد الممات . طفولته ، ونشأته ، وكهولته ،
وشيخوخته التى مات قبل أن يخطو فيها ، حصلت عليها من رواة
متعددين ، اتفقوا ، واختلفوا ، باتفاق نظرتهم إلى الرجل ،
واختلفهم فيها . عمدة قرية السمارة سليمان عبد الواحد ، وأمور
مركز السنبلالوين - آنذاك - البكباشى عبد اللطيف الدمياطى ،
وصبى طعيمة صاحب القهوة بالسمارة ، وعم طلخاوى البقال
بالقرية ، وعبد اللطيف صفرائه التاجر بالسنبلالوين ، والشيخ
التهامى رزق ، وبشير النحاس وشحاته عز الرجال وآدم وزه ،
الذين شاركوا فرج خليل فيما فعل ، ورجال ونساء من قرية
السمارة ، والقرى المحيطة بها ، عاشوا فى زمن فرج خليل ،
وتعرفوا إليه ، وتعاملوا معه .. وأوردت كل الروايات ، ما اتفق
منها ، وما اختلف . لم يشغلنى انسجامها ، بقدر ما حرصت أن
أنقلها . استدعيتها بالتذكر ، فأهملت تصور حالات من جلست -
واستمعت - إليهم . همتى الروايات المتعددة ، وليس المفردات ،
أو اللهجات التى قيلت بها .

**بعض ما روى عن طفولة
فرج خليل ونشأته**

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

لا أدري - على وجه التحديد - متى كانت البداية ؟..

السمارة قريتي ، تقوم أسرها على بنات ، ينتمى كل منها إلى أصل واحد . عائلة ، مضى على قدومها إلى السمارة أعوام قصيرة ، أو طويلة ، تفرعت من البدن الواحد ، الأصل الواحد . بنى أبى بيتها الأول . العائلات الثلاث : صفراته ، والنخيلي ، وعبد الواحد ، لا يجاوز عدد أفرادها المائة . الترحيلة قدمت من ديرب نجم وخفير شهاب الدين وكفر سعد . القلة بدأت رحلتها من الصعيد ، أصفون المطاعنة وأبنود . الزمام جاوز الدقهلية . لنا الآن خمسمائة فدان ، نعبر لها الجسر داخل الشرقية .

ادعى ابن شفيقة لنفسه أصلا من الحجاز . قال : إن جده قدم إلى مصر فى زمن قديم . استوطن ، وتزوج منها . توزع أبنائه فى مدن المديرية وقراها . وسافر منهم وراء العمل فى مناطق بعيدة ..

ابن شفيقة ليس من أهل السمارة . ما رواه عن أصله من اختراعه ، فهو بلا أسرة معروفة ، ولم يكن أحد من أهل السمارة يعرف عن أصله شيئا . قيل إن أبويه جاءا مع مهاجرى الشرقية الذين فروا من وجه السلطة ، ووجدوا فى قريتنا الحرية والأمان . وقيل إن أبويه قدما مع الترحيلة إلى عزبة النخيلي القريبة . وكانا يترددان على القرية لشراء لوازمهما . أقاما علاقات ومعرفة وصدقات ، وتخلفا عن الترحيلة ، بعد أن غادرت عزبة النخيلي ، ولزما السمارة . وشاهد عم طلخاوى - فى طفولته - الأبوين يدخلان السمارة ذات صباح . مالا من السكة الزراعية ، إلى المدق الترايبى ، وثمة - فى مدى الأفق - سنابل قمح ناضجة - يسهل تبين

الغرياء عن القرية من رجال الإدارة والباعة والمتسولين والمجانيب وعابري السبيل .
قالا : إنهما سارا ثلاثة أيام ، من قرية غير معلومة . حتى أمه ليست من أبناء
قريتنا . اسمها ولقب عائلتها لا يعرفهما أحد ، لكن سحنتها تدل على صعيدية
أهلها . شفيقة هو الاسم الذي عرفت به . الأب مات في طفولتنا نون أن نعرف عن
أحواله شيئاً .

قيل إن المرأة غازية ، تعرف إليها خليل زهران حين كان يمارس النشل في
مولد سيدى أحمد الببوى ، فاستهوت ، وعقد عليها ، وتقلنا من بلد إلى آخر ،
حتى استقر بهما المقام في السمارة .
لم يبدأ بمهنة محددة .

كان يؤجر عافيته . عمل في تنقية الدودة ، وفي جمع القطن ، وحصاد القمح
والمحاصيل . وعمل - لأشهر - في وابور الطحين . ينقل الأجولة والقفف ، ويدق
القابوس . ثم انتقل إلى حرف لا نهاية لها : يعزق الأرض ، يعمل على الشانوف
والمحراث والنورج والقصب ، ينزح الآبار من البيوت ، يقطع السباخ من الحظائر ،
يقتلع الحشائش الغريبة ، يروى البرسيم ، يشتل الأرز ، ينتزع ورد النيل من
مجرى الترعة ، يحرس الزرائب والسواقي والغيطان . مجرد أن يحصل على
القرش .

قال عم طلخاوى :

كنت أعرف خليل زهران ..

نشأت وأنا أعرفه ، لكننى لم أعرف له أباً ولا أمّاً ولا أهلاً . قيل إنه فر من

مطاردة ثور .

وقيل إنه تورط فى حادثة قتل ، فترك قدميه تسوخان فى بلاد الله خلق
الله .

أنكر أنى قلت لخليل زهران :

- أين بلدك ؟

أشار بأصبعه ناحية الشرق ، دون أن يحسد اسم البلدة التى قدم
منها ..

أعدت السؤال :

- هل أنت من بحرى أو من الصعيد ؟ ..

قال :

- عشت حياتى متقللاً بين الموالد ، فلم أسأل أين ولدت ..

- وأم فرج ؟ ..

لاحظت ارتعاشة خفيفة فى شفتيه :

- تعرفت إليها فى مولد سيدى إبراهيم النسوقى .. ثم عقدت عليها ..

- وأبوك ؟ .. وأمك ؟ ..

تداخل تهديج صوته بانفعاله :

- أعرف أنهما من النقيلية .. لكنهما تركاها من زمان ..

وسرح بنظراته :

- أول ما أنكره ، حياتى مع أسرة من الفجر كانت تنتقل بين الموالد فى

مدريات الصعيد .. من أسيوط وطالع ..

- وزوجتك ؟ ..

زوى ما بين عينيه :

- ما لها ؟ ..

- ألا تعرف أسرتها ؟ .. ومن أين هي ؟ ..

شوح بلا مبالاة :

- مالى بأسرتها ؟ .. أعجبتنى فتزوجتها ..

قال عوض عبد العال ، ناظر عزيمة النخلى :

ولد فرج خليل ونشأ ، مثل كثيرين من أبناء السمارة ، ومثل كثيرين من أبناء
قرى الدقهلية ، وقرى مصر كلها . لم يستلفت النظر بما يثير ، أو يشد الانتباه ،
ولم يختلف عن سواه من آلاف الأطفال الذين ولدوا يوم مولده ، أو قبله ، أو بعده ،
وإن نسجت الحكايات والحواديت والغرائب حول حياته ، منذ مولده إلى مماته ،
قبل أن يجاوز الخامسة والأربعين .

روى لى أبى إنه رافق خليل زهران إلى السنبلوين ، ليلة الجمعة اليتيمة .
بطحه الحلاق - بباطن كفه - فى جيبته ، كى يعيش . وعاش حياة عادية ، قضى
جانباً كبيراً منها فى بيت العمدة ، ثم مال إلى حياة الليل ، فنسجت حوله حكايات
الخيال ، ونسب إليه الكثير من الأعمال الخارقة ، فهو يستطيع - بقوة البنينة
وحدها - أن ينفذ من الحوانات ، والجدران ، ويتخطى الأسلاك الشائكة ، وأسوار
التين الشوكى ..

قال الشيخ التهامى رزق :

قضيت سنوات التعلم فى المعهد الأحمدي ، وفى الأزهر . عرفت فرج خليل
خادماً ، أو شبه خادم ، فى دار العمدة سليمان عبد الواحد . يقضى له الحاجات

من القرى المجاورة ، أو من السبلاوين . ربما انتظر أصدقاء العمدة على محطة
القطار ، يسير خلفهم ، يدلهم على الطريق إلى السمارة . قيل إنه ولد لحظة موت
أمه . أعقبت صرخاته صرخات الأم قبل أن يهدأ جسدها ، وأعقب صوات النسوة
صرخات الأم ووليدها .

ليست هناك رواية واحدة . مؤكدة ، عن فرج خليل .

ثمة من أحبه ، ومن كرهه . الأعوام الأولى من طفولته يلقيها القموض . ما رواه
أهل القرية يغلب عليه عدم تحديد . كأنهم يتحدثون عن أشخاص كثيرين ، لا
شخص واحد . أبواء معروفان ، وبيته مازال قائما في أطراف القرية . أسخه أبوه
الكتاب . ظل فيه حتى أتم حفظ القرآن . وقيل إنه لم يتعلم فك الخط . وثمة رواية
أنه أفاد من نزلاء السجون في التعلم ، حتى أجاد قراءة الصحف . وقال سلامة
حسبو إنه عثر في أوراق فرج خليل على شهادة إتمام الدراسة الابتدائية . وروى
أن شيخا زار السمارة على رأس طريقة صوفية ، فقال وهو يتأمل الواد ، نون أن
تكون له به سابق معرفة :

- سيكون لهذا الولد شأن عظيم !

ألفت رؤيته - فيما بعد - أمام مكان عم طلخاوى البقال . ربما وقف - في
غياب الرجل - يبيع الشاي والسجائر والعطارة وأقماع السكر ومكعبات
الصابون والأقلام والكشاكيل والكعك والحلوى . وربما ألقيت السلام على
الرجال وهو بينهم - في قهوة صبحى طعيمة . فكان كالحق ، تنز جدرانها
بالرطوبة ، والموقد في الركن ، صفت عليه أباريق معدنية . وأكواب ، وعلقت الجوز
على الحائط ، وأوحة لأبى زيد الهلالي يركب حصاناً ومن ورائه الجميلة ناعسة

الأجفان . وتناثرت فى الداخل وأمام الباب كراسى من القش بينها ترابيزات صغيرة من الحديد . ويتدلى كلوب كبير أوسط المدخل ، تحت بلكونة الطابق الأول .

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

ولد ابن شفيقة فى القرية ، لكنه بلا أسرة . نعرف أمه . خادمة تتربد على البيوت . اسم ابن شفيقة الذى أطلقه العمدة عليه ، ذاع ، وانتشر . عرفه الجميع ، وتبادلوه ، إلا هو . لم يجسر أقرب أعوانه على مصارحته بالاسم الذى ذاع . لا نعرف أباه . لا نعرف له أبا ، فهو كالنبات الشيطانى ، لا أقارب له فى القرية ، ولا فى القرى المجاورة .

أسر القرية تنتمى إلى ثلاث عائلات ، تتصل بصلات نسب ، فتصبح القرية كالبينة الواحدة ، كالقبيلة الواحدة ..

ابن المرة أولى به اسمها . ابن شفيقة هو . تزوج العهر بالقوادة فأنجبا الضياع الكامل . البطالة تغوى بالجريمة . السمارة تنكرها . أهلها طيبون بسطاء ، برغم تفاوت البيئة والنشأة . ربما عائلة أصلها من الصعيد ، وأخرى من شمال الدلتا ، وثالثة من برارى الفيوم ، لقمة العيش شغلت الجميع ، فلا يعينهم سواها ..

لم يكن له غيط يزرعه ، ولا تجارة يعمل بها . جاء بعد ثلاث بنات . شط والداه فى تدليه ، حتى قسد . عمل - لفترة - طبياً ، يقرع الطبل فى الأفراح ، وأمام الجنازات ، ويمارس عمل المسحراتى فى ليالى رمضان . يحصل من الأسر على كميات من المحاصيل ويتلقى مالاً ومأكولات وملابس فى المواسم والأعياد . ثم

عمل - شهورا - فى خدمة العمدة . يحمل التراب من الغيطان البور ، لتتريب أرضه الخالية فى قرية حانوت ..

لما آنس طيبة أهل السمارة ، وميلهم إلى الخير ، توهم أن ما يهبونه حق له ، فتحول إلى فرض الإتاوات . ثم تعددت حوادث السطو . يحل البهائم من قيودها داخل الزرائب ، يلف الشحوط على رقابها ، ويسحبها ، عمل لحساب نفسه . ولن يدفع الأجر . سكت عنه العمدة حتى أصبح الأمن أملاً . استدعيته ، فلم يملأ عيني صفعته ، وهنته ، فخدعنى ..

عندما صدرت الأوامر بتجنيد من بلغوا سن القرعة . انتشر العساكر فى الأسواق والطرق الزراعية والحقول وتحت الجسور ، وفى الغرز ، يسلم البعض نفسه بلا مقاومة ، ويعصلج البعض قبل أن يجرى تكتيفه . وفر ابن شفيقة - مع آخرين - إلى غيطان القصب ، وفوق الأسطح ، وداخل حطب القطن ، أو قش الأرض ، وتحت كيمن السباح ، وإلى الأماكن التى يسهل اختفائهم فيها ..

قال عبد اللطيف صفرائه :

قيل إن فرج خليل لم يصرخ - عند ولادته - كبقية الأطفال ، لكنه ظل صامتاً حتى حسبت الداية ولد ميتاً .. قرصته أم مشالى من فخذة ، فصرخ متألماً . وقيل إنه بلا أبوين تعرفهما القرية . لقيه خليل زهران فى لفافة تحت شجرة على الطريق السريع بين المنصورة والزقازيق ، فقتناه ..

فيلت عن طفولة فرج خليل وقائع غريبة : هل كان صامتاً ، عزوفاً عن اللعب مع الأولاد ، كما روى سلامة حسبو ؟ أو أنه كان شقياً يؤذى من هم فى مثل سنه؟ وربما طال أذاه الحيوان والطيور . وكان يركب أعمدة التليفون ،

ويتسلق النخيل، ويسرق غيطان البطيخ ، ويخيف المارة بالخروج المفاجيء من أعواد الذرة . وأكد العمدة سليمان عبد الواحد أنه رآه بعينه يقنف قطة بحجر. فلما اطمأن إلى موتها ، وضع الحجر فوقها شاهد قبر ، ثم دعا الأولاد لرؤية ما فعل .

لما كبر ، اعتننا رؤيته يتجول فى حوارى القرية . من حوله ، مجموعة شبان ، نعرف أقلهم ، ولا نعرف غالبيتهم . حتى هؤلاء الذين نعرفهم لم يكونوا من السمارة . كانوا من المتردين على السوق التى تقام خارجها ، طيلة نهار كل اثنين . أصبح يرتدى الجلابة الحرير فى الصيف ، والكشمير ، أو الصوف ، فى الشتاء ، واللاسة السكروتة . طوله البادى ، قامته الأقرب إلى النحافة ، شعره الأسود الكث ، يحسن تصفيفه ، وإن أهمل خصلة منه على جبينه ، تتحرك إذا تحرك ، أو انفعل . وكان له ابتسامة تلصق البراة فى وجهه . يتمشى فى سوق القرية ، أو فى دايبر الناحية . تمر أمامه مواكب الجنازات والأفراح ، ويمر فيه المنادى على الأطفال الغائبين . لا يستخدمه أهل السمارة فيما عدا ذلك إلا نادراً . كل بنة تستخدم الجزء المواجه لمنطقتها فى الوصول إلى الغيطان . يسلم على الرجال فى مكان عم طلخاوى ويسحب كرسيه ليجلس وسط المتردين على قهوة صبحى طعيمة . يقضون الأمسيات ، يشربون القهوة والشاي ، يتناقلون الجوزة ، يشرقون بالكلام ويغريون ، عن أسعار الغلال والبهائم ومياه الري والندوة وأفات الزراعة وسماذ بنك التسليف . ربما ترد على همزة مسعود القط أول الطريق المفضى إلى الشرقة . والتقيت به - مرات كثيرة - فى البرحاية التى تتقابل عندها كل شوارع القرية وحواريها ، فى وسط القرية ، فى قلبها ..

قال سليمان عبد الواحد :

لاحظت أنه يستعلى على العمل ، ويطلب الحياة السهلة . يقضى أغلب وقته على الجسر ، أو فى الزرائب لأفعال قبيحة ، وربما تحت شجرة فى طرف غيط ، أو يلزم الطاحونة . هو الساكن الوحيد فى مكان يتحرك فيه كل شيء : الماكينة ، والقابوس ، وسير العجلة المنساب بلا توقف ، والدقيق الهابط من الفتحة ، والكفوف تضغطه فى المقاطف ، والحساب ، والزعيق ، والزياط .

الحقته بالخدمة عندى ، لم يكن يعارض ، ولا يتأفف ، ولا يشكو التعب ، ولا يتردد فى تنفيذ أوامرى إليه . ثم غوى حياة الليل ، فعاشها .

الليل هو العالم الحقيقى لابن شفيقة وأعوانه ..

أبناء الليل تسمية لها أصلها . يحسنون الوثوب والاختفاء ، يطمثون إلى غياب الأعين الملاحقة أو المترصدة . لواذ الناس بالبيوت ، وجود البهائم داخل الزرائب ، والمحاصيل بلا حراسة حقيقية فى الفيطان ، أو فى الأجران ..

تعددت حوادث سحب البهائم من زرائب عبد الواحد وصفراته والنخيلي . وكانوا يسرقون عروق الخشب من الحظائر ، يحشون الأجولة بالأرز وكيزان الذرة . لم نعد نأمن سرقات ابن شفيقة إلا فى مسرى ونسىء وتوت . تغمر مياه النيل الفيطان . يقتصر السير على الجسور . تتعالى تحذيرات رجال الرى والإدارة والخبراء . يأمن الناس أنية ابن شفيقة ، فهو لا يظهر . وإذا ظهر ، فهو يرتدى البراعة أمام دكان عم طلخاوى .

لم يعد يسرق المال . تملكته المقامرة ، والميل إلى الشر والإيذاء ، وملاحقة النظرات المتلطفة ، والخائفة .

قال بشير النحاس :

كان فرج خليل سلطان الرجال ، ويطل الأعيان ، وفارس العصر والأوان . لم يفعل شيئاً إلا لحكمة غابت عن العقول الغبية ، وسر بنتائجها الغلبة من أبناء السمارة . كان مولده فى ليلة السابع والعشرين من رمضان . لما أنجبته أمه كانت قد جاوزت الستين ، وهو ما حير أهل السمارة . روت أنها رأت فى المنام - ليلة ولادته - من همس لها : أبشرى يا طويلة البال ، فقد جزاك الله على صبرك بطفل سيكون فارس أوانه ! .. وروى الشيوخ من أهل القرية ما رافق مولده من غرائب ، فقد سمعوا صوت رعد ، ورأوا فى السماء ما يشبه البرق دون أن يصاحب ذلك غيوم ، وهطل المطر ، فى حين كان الجو صحوً . وقيل : إن أم مشالى الداية ظلت - بعد ولادته - ساهمة ، لا تتكلم ، وتتنظر بعين ثابتة إلى الأمام ، وتغالّب ارتعاشة فى جسمها كأنها تعاني حمى . وقيل : إنه رفض أن يرضع من صدر أمه إلا بعد أن قامت للوضوء والصلاة . لم يؤثر فى بينها أنها عجوز ، ولا أنها كانت حبيثة عهد بالولادة . ولما دعا أبوه الأسطى عبد الشكور الحلاق - صباح يوم ولادته - للتعجيل بختانه ، اكتشف الرجل ان فرج ولد مختوناً ، فأغلق الشنطة الجلدية الصغيرة ، ورفض أن يتقاضى مليمًا . وقيل إن تعلمه الكلام اقترن بأدعية هامة ، إلنقط منها أبواه أسماء الجلالة والرسول وآل البيت والأولياء الصالحين . لم يكن الطفل يطبق القماط حول جسمه . كان يقضه بغضنين قويين . وروى لنا أنه لم يكن فى طفولته كالأطفال فى مثل سنه ، لم يقبل على اللعب ، ولم يرتكب حماقة ، ولم يلجأ إلى الكتب للفرار من خطأ ارتكبه . وقيل إن الغجرية مبسوبة قرأت له طالعه ، بعد أن وشوش له أبوه الفكر ، تنبأت له بالنجاح فى حياته ، وأنه سيكون رجلاً مهماً ، يواجه العقبات ، ويتغلب عليها ..

قال بشير النحاس :

أعرف فرج خليل منذ طفولته ..

دعت أمه بمثل دعوة خضرة الشريفة أثناء حملها : أن يهبها الله ولدا شجاعاً، وإن لم تتمن أن يكون ولداً في سمرة الغراب . . تتمنته قوياً ، جميلاً ، قمحى البشرة فى لون أبيه وأمه . وكان أهم ما يميزه عيتان بنيتان ، من الصعب على محدثه أن يحرق فى التماعهما ، وأنف مستقيم يطل على شارب أميل إلى الصفرة. لم يتعلم فى كتاب ولا على يد شيخ ، كان علمه من عند الله . لا أنكر أنى رأيت عابثاً . وكانت تغلب عليه مسحة من الهدوء . يقوينا نون اختيار ويلا تعد . تتبعه فى السكك والمديقات والقيطان ، وعند المسجد وقهوة طعيمة وكان عم طلخاوى والتخيل والصفصاف والسواقى . ينصت إلى أحاديثنا عن السجاد والبنور والمحاصيل وسوق القرية والعمدة وأسعار البهائم ومستشفى المركز وأبناء الليل وآخر الشائعات . إذا تكلم ، تغيب التثرثرات الجانبية ، والعبارات المقاطعة ، والتعليقات . يرين هدوء ، فلا يعلو سوى صوته ومنطقه ورأيه . يحسم الأمر الذى يطول فيه الخلاف ، واشتهر ببراعته فى التحطيط . يجيد الإمساك بالعصا ، والابتعاد عن ضربات الخصوم ، ويتنصر فى كل مرة . واعتدنا فوزه فى حمل جوالات الكيماوى وأكياس القطن . ولم يكن يتعاطى المخدرات ، ولا يشرب السجائر . وظل يرفض أنوار الشاى . ثم اعتاد مشاركتنا شرب الشاى فى قهوة صبحى طعيمة ، أو فى الخلاه . وكان يطيل تأمل رسم الهلالى فوق جواده ، على جدار قهوة طعيمة ، يتحدثى ما لا يرى ..

طال عمله عند العمدة ، نون أن يعطيه أجره . يطعمه ، وينيمه فى الزريبة ، ويأمره بما لا قبل لبشر على تحمله .

قال فرج خليل :

- أنا أعمل بلا أجر ..

قال العمدة :

— ماذا تقصد ؟

دون أن يظلمه الانتغال :

— أى عمل لابد أن يقابله أجر ..

روى لنا فرج خليل أن حياته تغيرت منذ دعا فى ليلة القدر ، فانفتحت له طاقتها . لم ينطق بكلمات محددة . اكتفى بالهتاف من قلبه : يارب .. لبي السميع العليم ما كان فرج خليل ينوى الدعاء به ، فاستجاب له ، وانصفه من ظالميه . يسر له طريقه ، وما سعى إليه . أخبرنا أن السيد البدوى ظهر له فى المنام ، يرتدى عباءة خضراء ، ولف رأسه بعمامة يمتزج فيها اللونان الأبيض والأخضر . تحسس رأسه برفق ، وقال :

— إذا قمت فى صباحك ، فأتت فارس العصر والأوان الذى يخضع الناس لإرادته .. وسأله شحاته عز الرجال :

— كيف عرفت يامعلمنا أنه السيد البدوى ؟ ..

قال فرج خليل :

— مع أنه لم يعلن لى اسمه ، فإن اليقين فى داخلى أكد لى أن الواقف فوق رأسى هو شيخ العرب لا سواء ..

قال شحاته عز الرجال :

— فهل ذلك على الوسائل التى نواجه بها مكائد العمدة ومطاردات البوليس ؟

قال فرج خليل فى هدوء :

— كل شئ مرهون بثوانه ..

منح الله فرج خليل قوة لا قبل للبشر بها ، وضعها فى خدمة من يستحقونها من الغلبة . رفض أن يهب عونه لمن جعلوا أنفسهم فوق البشر . فى يابة تنحسر مياه الفيضان ، فيخضر وجه الأرض ، ويجنى القطن ، ويحصد الذرة ، وتسهل سرقة القمح . الليل ما بين المنتصف وصلاة الفجر ، هو أنسب الأوقات للسطو على البيوت والدكاكين . يحل التعب على الناس ، فينامون . الصمت سائر ، يعمقه صرير الجناب ، ونقيق الضفادع ، ونباح الكلاب ، وانطلاق القطار فى نهاية الغيطان . لا تسطو على بيت صحا سكانه . والشتاء أفضل من الصيف . الصيف حصيرته واسعة ، يمتد السهر إلى الصباح . ينام البعض فوق الأسطح تلمساً للطراوة . فى بشنس ، تكسو شجيرات القطن الأرض ، فيسهل إتلافها انتقاماً . أوان حصاد القمح ، ووضعه فى الأجران ، تمهيداً لفصل حبه عن قشه ، أنسب وقت لإشعال الحرائق والسرقة . المبيت فى الأجران أثناء جمع المحاصيل ، يسهل اقتناص المطلوب ترويعهم . فنحن لا نقتل . كنا نسرقة البهائم وهى عائدة من الحقول ، أو وهى مربوطة فى الزرائب . نخفيها فى نوار العمدة ، نون أن يعرف العمدة نفسه ..

شدد فرج خليل علينا ، فلا نؤذى من يلقي علينا السلام ، ولا نسطو على بيت تقيم به أسرة فقدت عائلتها ، ولا نتعرض بأذى للجاسين فى مكان عم طلخاوى ، أو قهوة طعيمة . كن قاسياً ، واترك للعاطفة منفذاً . القسوة غير المتدبرة عمياء . زاد ، فحمى السمارة من سطو اللصوص . سرقة أى شىء من بيوت القرية إهانة لم يتصور أنه يحتملها .

منذ ظهر فرج خليل فى حياة السمارة ، لم تتعرض لسرقة أو غارة أو هجمة قاطعى طريق أو فرض إتاوات . يتحدث أهلها عن أعمال فرج خليل فى القرى

المجاورة ، والبعيدة ، وفى السنبلاوين ، وربما فى المنصورة . لا يخشون أنها قد
تفاجئهم فى السمارة ..

قال المعلم صبحى طعيمة :

ولد ابن شقيقة لحظة موت أمه . ومع أن أباه جاء إلى البيت - بعد وفاة أمه
بثلاثة أشهر - بزوجة جديدة ، شابة ، إذا قارن بينها وبين أمه ، فهى ابنتها .
بيضاء الوجه ، ناعمة البشرة ، ترتدى الثياب الضيقة ، فيبين جسمها الطويل
الملفوف . مع ذلك ، فإنه ظل على حبه لأبيه ، وإن كره زوجته . لم يتصور أن امرأة
أخرى غير أمه تنام إلى جوار أبيه ، تجلس فى فسحاية البيت ، تسوى الخبز
والصواني أمام الفرن ، تقذف ماء الغسيل والاستحمام أمام البيت بآخر عزمها .
لم يكن أمام فرج إلا أن يعصى أمر أبيه ، أو يقتل زوجته ، أو يهجر البيت فلا
يؤذى أحداً ..

وهذا ما فعله ..

إسقاط الإضافة

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

اليد العليا خير من اليد السفلى . وكان ابن شفيقة هو اليد السفلى دائماً . لا يزرع ، ولا يتاجر ، ولا يبذل ما يعينه على كسب قوت أيامه . إنما هو سائل للميسورين من أبناء السمارة . فلما آتس طيببتهم وحببهم للخير ، توهم أن ما يهبونه حق له . فرض الإتاوات ، وسطا على البيوت ، وسرق الماشية والدواجن والحبوب ، وأتلف المزروعات ، وسلب الأمنين راحتهم ..

قلت له :

– ظهرت عليك النعمة ..

قال :

– الحمد لله :

– وما السبب ؟

قال صبحى طعيمة مداعباً :

– ملك الملوك إذا وهب ..

قلت :

– ملك الملوك أم الشيطان ؟

قال ابن شفيقة :

– الشيطان تعرفه أنت !

كما نعلم ، فإنه ليس بعد الحق إلا الضلال . وقد خرج ابن شفيقة عن الحق ، فضل ضلالاً مبيناً . اتبع سبيل الشيطان . نصحته وناس القرية ونحو العلم والمروعة ، فاستمر فى غيه ، لا ينصت لنصيحة ، ولا يعبأ بأمثلة ولا عبر . لم تقتصر حياته على جريمة محددة ، لكنه مارس كل أنواع الجرائم : القتل ، والسطو ، وإتلاف المزروعات ، وتسميم الماشية ، والخطف ، والتهديد ، والحرق العمد .. لا يستطيع أن يهجر تلك الطريق ، أو يحترف مهنة أخرى ..

سلامة حسبو هو اليد الباطشة فى جرائم ابن شفيقة . يصدر الأوامر ، ويكل إليه التنفيذ ، أو يشاركه فيه . عيناه الواسعتان ، القلقتان ، تتناقضان مع تكوينه المتضائل . جسمه نحيل أميل إلى القصر ، لا يكاد يستقر فى موضعه . قدم من عزية الربيع القريبة . أبوه شيخ خفر له سمعته . ضبطه يهم بزوجه الشابة . لاحقه بالرصاص حتى غاب فى أفق القرية . جعل نفسه صبيهاً لابن شفيقة ، وإن ميز نفسه عن الباقين ، قدموا من مناطق بعيدة . لا أصل ، ولا أسر ينتمون إليها ، ويحيون خوف المطاردة لجرائم ارتكبوها ..

كان ابن شفيقة يسرق ، ويقتل ، ويرتكب الفظائع ، ثم يسعى إلى بيت الشيخ التهامى رزق ، يبكى ، وينهه ، ويأتى بالنور ، ويلتمس البركات . يظن أنه قد أبرأ نيمته ، وأدى ما عليه من حق الدين ، وانقضى جحيم الآخرة ..

قال شحاتة عز الرجال :

شجعنا ضوء القمر على مواصلة السير . تمضى أقدامنا فى الطرق الضيقة وسط الغيطان . كانت السماء صافية ، نقية النجوم . ومن حولنا تترامى الأصوات الليلية : البوم والضفادع والجناب والكلاب وهسهسات شواشى النزة الشامية والنخيل وأغصان الشجر . رحنا نتكلم ، ونتكلم ، أروى وينصت ، ويشرح الظروف ، وأبدى تأثري . كنا قد تجاوزنا السمارة بمسافة قليلة ، عندما تبينا أن الصداقة أقرب إلينا من كل ماعداها ، فعدنا إلى القرية ..

حاصرته الاتهامات الظالمة بالسرقه ، فمارس السرقه فعلاً ..

بدأ بسرقات صغيرة : ثمار خضراء ، وفاكهة ، عب قطن ، كيزان ذرة . ثم سرق الطيور والأرانب من الأعشاش . سرق زغاليل الحمام . علمها الطيران ، والعودة إلى أعشاشها أعلى سطح البيت . يبيعه ، ويتقاضى الثمن ، فتعود إليه . واجترأ ، فسرق ثلاث بقرات من زريبة صفرائه ، أعادها لأصحابها بعد دفع الحلوان . لم يعاونه - فى البداية - أحد . يراقب المكان ، بيتاً ، أو مكاناً ، أو

زربية . يدخل ، فيأخذ ما يأخذ ، ثم يمضى . وكان يستطيع لزوم مكانه ، لا
يد ، ولا يتحرك . ساعات متوالية حتى يزول الخطر .

قال لى :

- أحسست بالحاجة لأن أكون ما يتهنى به العمدة ، فاقدمت على السرقة !
واختار الحياة خلف الأشجار ، وتحت الجسر ، وعلى حد الخلاء بين أعواد
الذرة . ويحط على قهوة طعيمة - فى أوقات يختارها - يجالس الرجال ،
ويسامرهم ، ثم يلقى سلامه ويمضى ..

كنت أتمثل نظراته ، فأعرف ما بداخله : الفرحه والحزن والغضب ، يشى بما
لا يحاول التكلم فيه شروء . أخمن إن كان يوسعنا سؤاله ، ومناقشته ، أو تتركه
لما يشغله .

قال آدم وزه :

قدمنا إلى السمارة بصيت فرج خليل . ما بدا كئنه الخوارق أو السحر . كنا
أفراداً يطاربتنا البوايس داخل قرانا وخارجها . سعينا إليه ، وخاطبناه بالمعلم .
اختار من اطمأن إلى أصولهم فى الدقهلية ، واعتذر للباقيين ..

كان أهم ما يميزه أنه إذا أغمض عينيه .. وأنصت إلى محبته جيداً ، فطن إلى
سره ، وما يضمره . أنسنا إلى معلمته ، نستمع إلى أوامره ، فننفذها . يحرص
أن يشاركنا ما نفعل .

قال صبحى طعيمة :

كان فرج خليل يعرف مصيره منذ البداية . موت أمه ، مارواه له أبوه ، نبوة
الشيخة حياة . وعرف أنه سيواجه الكثير من الأخطار ، حتى يجد نفسه فى
النهاية يحقق ما كان يحلم به ..

اعتاد مناداة العمدة له بابن شقيقة . يزوم ، يظهر الغضب ، لكنه يلبى النداء
حتى لا يؤذيه العمدة . لم يرث الرجل العمودية ، ولا كان يمتلك ما يؤهله لها .

قيل: إن أرضه لم تزد على ثلاثة فداين . وحين عرف طريق السياسة ، وأدى خدمات للحزب الذي فاز بالحكم ، عينه الحزب عمدة للقرية ، واتسعت الفداين الثلاثة . أضاف إليها بيتاً من ثلاثة طوابق وواور طحين ، وقيل إن له اسهما في بورصة الأوراق المالية ..

همس فرج خليل - ذات يوم - في سخط :

- اسمي فرج خليل .. فرج خليل زهران ..

قال العمدة :

- شقيقة اسم أمك ..

علا صوته بالغضب :

- وما شأن أمي ؟

قال العمدة :

- أنت ابن خليل زهران .. وابن شقيقة ..

ومضت عيناه الملتمعتان :

- الرجل ينادى باسم أبيه ..

أطلق العمدة ضحكة مججلة :

- الرجل يا ابن شقيقة .. الرجل ! ..

صرخ فرج خليل :

- أرفض هذه التسمية ..

وشى صوت العمدة بسخرية :

- هل تملك الرقص يا ولد !؟ ..

ثم وهو يعدل النظارة الطبية على أنفه :

- أنا أقرر كل شيء ! ..

وأحتض فرج خليل ظهره ، فوضع عليه خلاف أبو كييفه - خادم العمدة - حمل

تين .. ومضى ..

وحين ناداه العمدة وسط الرجال فى القهوة ، هتف :

- لا تتنادى باسم أمى ..

إرتج على العمدة ، واحمرت أنفاه ..

قال شيخ الخفر توفيق اسماعيل :

- من منا ليس ابن مرة ؟ ..

مسح بعينيه وجوه الرجال :

- هل منكم من ينادى بإسم أمه ؟ ..

قلت مهونا :

- العمدة مثل أبيك ..

قال فرج خليل :

- كان أبى ينادىنى باسمى ..

قلت لأنهى الموقف :

- لا تحبكها يا فرج .. واتكل على الله ..

ناداه العمدة باسم أمه ، فتبعه أهل السمارة ، ثم لصق به الاسم ، وإن لم يناد

به - فبعما بعد - فى مواجهته . حتى العمدة أصبح يناديه باسمه الحقيقى : فرج

خليل . يدرك مدى رد الفعل الذى سيواجهه به الرجل لو أنه ناداه باسم أمه ..

لم يعد فرج خليل - منذ استقل بحياته - يخاف العمدة، ولا يأخذ جانب الطريق

إذا رآه مقبلا ، وإن أكد العمدة أنه لم يكن يجسر على أن يرفع عينيه فى وجهه ..

لجأ العمدة إلى القوانين العرفية للحرب العالمية الثانية . طلب إدراج فرج خليل

فى كشف الخطرين على الأمن العام . كان فرج فى الثامنة عشرة ، ولم يكن قد

فعل مايذهب به إلى الموضع الذى اختارته الحكومة لمن تتقى أذاهم ..

قال بشير النحاس :

إذا لم يقل أهل السمارة رأيهم في العمدة في وجهه، فإنهم قالوه في الغيطان والجسور والغرز وفوق الأسطح، وفي قعداتهم الخاصة ..

مكن العمدة لأمله والمحسوبين عليه . أسقط أرزاق الناس، وأطلق يد توفيق اسماعيل والخفراء يضايقون الجميع . طوع قانون الطوارئ لهواه ، بلغ المركز عن المنكشين والذين في حالهم . أفلح في التخلص من خصومه وخصوم عائلته ، بإدراجهم في قوائم الخطرين على الأمن العام . أفاد من قانون الطوارئ ، فنفاوا إلى جبل الطور . سجل المواليد الذكور على أنهم إناث . أهمل من رشوه ، فلم يطلبهم للقرعة ، زور الاختتام لسلب الحقوق والاستيلاء على الأموال ، تستر على اللصوص والمطاريد وتجار المخدرات ، تقاضى الرشاوى للإعفاء من الأشغال والعوايد الشخصية وضريبة الملح . وكان يلجأ إلى الأجراء من أبناء السمارة في مواسم الزراعة والفيضان ، يستغنى عنهم في فترات مابعد التخضير ، وما بين دورات الري ، وأثناء التحريق . لا يلتزم بالتعليمات التي تصدرها المديرية كأنها تعنيه هو بالتحديد . لاسخرة للفلاحين في أرضه أو أرض غيره . حتى أراضي الحكومة يقتصر العمل فيها على الترحيلة . يعملون باختيارهم ، ويأجر ..

رفض فرج خليل ، مثمما رفض العمل في أرض العمدة . توقع عياراً نارياً يترصده في الظلام . إحتاط لغضب العمدة ، فاختر البقاء في البيت قبل أن يحل الغروب . أنفاس المباحث ترصدت في الغرز والمصاطب والبيوت والجسر . بثر التحريات مجدية . ما أسهل أن يغزل نسج الماضي من خيوط الأكاذيب . شفقة التي كانت أمأ لطفل في شهادة ميلاد ، صارت غازية . الوالد الفلاح أصبح قوادة . القرارات الثلاثة هي الثمرة التي يسعى الثعلب الى اتهامها . البنديقية للقطعة وجدت في داخل الحطب . أمر الاعتقال يلحق المصادرة . تفقد الأرض صلابتها . تعاني ، تهتز ، تميد ..

بدأت الحكاية بكذبة ..

قال الحاج سليمان عبدالواحد :

لا أنكر متى كانت البداية ..

المزروعات قلعت في كل الغيطان ، ماعدا قراريطة الثالثة . عرضت عليه العمل خفيرا لإيقاف جرائمه . الأمر جاوز الشكوك لما فرض اتاوة على عائلة السوقى . سايرته ، أخلصت له النصح . أبى واستعفى . كون - مع أبناء الليل - عصابة . يخفون البهائم المسروقة في زراعات الذرة ، أو القصب ، أو في مخزن مهجور لعائلة صفراته ، في طرف القرية . ربما باعوها في أحد أسواق القرى ، صباح اليوم التالي ..

حرمت عليه الدخول إلى الدوار . خصصت ساحته الفسيحة لاستقبال أبناء القرية . تحيط بنا غرف الاستقبال والمكتب والتليفون والسلاحيك . أناقشهم ، أحاول حل مشكلاتهم ، أزيل الخصومات قبل أن تنتسع ..

قانون الطوارئ يهينى الحق في أن أفعل ما أشاء لمنع الجريمة . مسئولياتى لا تقتصر على مجرد الإبلاغ عن المشبوهين . تمتد فتشمل حفظ الأمن ، تقديم الأنظار للقرعة ، فض المنازعات ، عقد مجالس الصلح بين الأسر والعائلات ، تحديد ما يبقعه الفلاح على أرضه ومحصوله من ضرائب ، إعادة المنسحبين فرارا من الضرائب والتجنيد والسمسرة بإبلاغ المركز بالوافدين والطارئين على حياة القرية ، وتسليم من يلوذ بها من أرياب السوايق ..

أكره أن أفقد إنسانا مستقبليه ، لكن الشجرة المريضة تطلب التقليم حتى تسترد عافيتها . طالبت باعتقال فرج خليل ، خوفا عليه من نفسه . لإهمال البكباشى عبداللطيف الهمياطى ، ولأنه لم يدرك خطورة ابن شقيقه ، فقد صحا - بعد ثلاثة أسابيع - على فراره من سجن المركز ..

قال عبده الجمل :

الخلاء أصلح الأماكن للفرار من وجه السلطة ..

هكذا علمنا فرج خليل ..

عيدان القصب أو الذرة تتلاصق وتتكاثر ، فلا يمكن المار بالقرب منها أن يرى ما بالداخل ، لكن العساكر قد يحيطون بالمكان . يلتقي فكا الكماشة نون أن ندرى . جعل قعدائنا فى مواضع نرى منها الخلاء أو نفر إليه . يريدون إعائته إلى سجن المركز الذى دخله ظلما . العينان الحادثان النظر تتبينان القادم من أبعد مسافة . دار العائلة كثيرة الحجرات والنوافذ والأبواب ، والغيطان مترامية فى كل الأطراف .. لكنه علمنا أن الاحتماء بالدار خطر ، مهما رصد من الأعوان ، وتجسس . يكفى الحكومة أن تعرف مكانه ، فتحيط بالدار ، ولو بالآلاف الجنود ، ومن مسافات بعيدة . أخذنا بالأحوط ، وحتى لايفاجئنا حصار ، جعل لآدم وزة مهمة حمل زوادة البتاو وزلعة المش ..

كان بشير النحاس طلاما للنخيل . أوكل إليه تسلق أسوار البيوت والوزائب والأجران . ينط فى قلب المكان ، يفتح الباب من الداخل . وكانت زريبة بهائم عائلة العمارى ، فى نهاية وسط الدار من الخلف . الدار تقع فى طرف قرية بريقين . تقبنا جزما من الحائط ، وهرينا منه البهائم . وكان يحرص ، فلا يواجه أحدهنا القبض عليه . إذا أردنا إحراق غيط ، أو مخزن ، أو دار ، سكبنا الجاز على جسد فأر ، وأوقدنا فيه النار . وأطلقناه . وكانت السرعة ترافقنا فى كل مانفعل . لحظات نبدأ فيها وننتهى . يظن أصحاب الدار بعد أن يستقبلنا الخلاء ..

روى لنا فى هدأة المساء ، وبخان التبن أمامنا يطرد الناموس - عن والده الذى تركه طفلا . السمارة إسم بلا أصل . الأصل عزبة زهران . السلطة وأهل العمدة بدلا الاسم . كانت الجريمة أبعد من أن تطوف بخاطره . عاله الجسر وشط التربة وبكان عم طلخاوى وقهوة صبحى طعيمة والعمل - أحيانا - فى غيط والده ..
قال له العمدة :

- اليد البطالة نجسة ..

قال فرج خليل :

- ماتحتاجه أرضى أفعله ..

قال العمدة :

- أريدك أن تعمل معى ..

وهو يشوح بيده :

- لا أحب شغل الحكومة ..

غالب العمدة انفعاله :

- وهل جاءت سيرة الحكومة ؟ .. أريد أن تعمل خفيرا لأرضى ..

عائلة عبدالواحد أظهرت الخضوع للحكومات ، وعملت فى خدمتها ، فتوارثت العمودية . عائلة النخيلي أحق بالمنصب لأنها كبيرة العدد والمكانة ، وإن لم تمالى الحكومة ..

قال فرج خليل :

- ربما سافرت السنبلاوين وعملت هناك ..

علا صوت العمدة :

- ترفض العمل معى يا ابن شفيقة ١٩ ..

كان قد مل الإهانة . أضافت الكلمة أعواما من الحقد والغضب . طق الشرر فى عينيه :

- أرفض أن أعمل معك يا عمدة ..

ألف اتهام العمدة بسرقة أى شىء يختفى من السمارة . وجد نفسه متهما بما يجعله من الأثرياء وأن صعب عليه - أيامها - تدبير الوجبة التالية . جرب الإنكار فى البداية ، منفوعا بإحساس الظلم داخله . لكن رفض العمدة تصديقه ، وتصديق الناس اتهام العمدة ، والإيذاء المبرح فى حجرة السلاحليك قبل أن يصبحبه الخفاء إلى سجن المركز .. ذلك كله دفعه إلى الصمت أمام الاتهامات ،

تواجهه ، فلا يواجهها . لا ينفي ولا يؤكد . يثق في تعاطف الإيذاء، حتى لو قدم البرهان على براءته . او استشهد بأخوين على أنه كان خارج القرية ، أو أتى بشهادة موثقة من المستشفى الأميري، تؤكد انتقاله إليها للعلاج من حمى مفاجئة، أو من اشتداد النوسنتاريا . من يتقدم بشكوى إلى المأمور ، يرسلها المأمور إلى العمدة . يبعث العمدة الخفراء ، فيأتون بصاحب الشكوى . يقضى ليلة أو ليلتين في حجرة السلاحليك ، فلا يفكر في كتابة شكوى - مرة ثانية - أبدا . وعندما كان العمدة يسحب فرج خليل الى حجرة السلاحليك ، وينهال عليه الخفراء ضربا بالشوم ، ويكعوب البنادق ، فإن الابتسامة الساكنة لم تكن تفارق شفتيه . ربما انطلقت منه أنه حاول كتفها ، لكن الابتسامة تظل في موضعها ..

لم يكن فرج خليل سارقا ، ولا قاتلا . ولا ارتكب ما يعاقب عليه القانون . ثلاثة قراريط في آخر زمام القرية من ناحية مديرية الشرقية . عاقه العمدة عن زراعتها، وربما كان يطمع في ضمها الى أرضه . كان فرج خليل يتطلع الى سقف وأسرة ، لكن تصرفات العمدة بدات الأمر ، وجعلت الممكن مستحيلا ، وبفعت فرج خليل إلى طريق لم يكن يتوقعها ، ولا أعد لها نفسه ..

قال الحاج سليمان عبدالواحد :

السمارة أسرة واحدة ، رغم تعدد العائلات ، لكن الفقصة الواحدة ربما تقضى على حقل بأكمله ..

التحق بالترحيلة ، ثم اخترته - لفتوته - خفيرا لغداين العائلة . رفض اللئيم ، واختار طريق الجريمة . المرأة شفيقة علمت ابنها السرقة . بدأ بالسرقة في الحقول . تسال الى البيوت في غيبة أصحابها . أخذ ما وصلت اليه يداه . أصبحت السرقة - فيما بعد - حرفة الوحيدة . لزمها العنف ، قسما ، واختطف، وضرب . وكان قد دخل بيوت القرية ، مشى في شوارعها وأزقتها ، تردد على قهوة صبحي

طعيمة والغرز خارج القرية ، عرف أسرار السعارة وماتحويه . بلغت الحوادث حدا زائدا . أبلغت المديرية ، وطلبت اعتقاله ..

مضى أقل من شهر ، قبل أن يظهر على الجسر ، وفى يده البندقية .. غرسنا فى طريقه الأعين والأذان . إحتطنا لجريمته الأولى . أدركنا الهدف ، فوزعنا الخفراء على سراى العماوى ببرقين . تشمم الخطر ، لكنه أصر على التحدى . سرق - من زريبة السراى - جاموستين . زاد ، فنهب - فى الليلة ذاتها - مكان صفراته بالسنبلاوين . أغراه السلاح والأعوان . فرض الإتاوات على الكبير والصغير . قتل لأتفه الأسباب ، تناثرت جثث ضحاياه داخل الغيطان ، قلع المزروعات . خطف الماشية . سرق حتى خيام الترحيلة . لم يجعل خاطرا لشيوخ أو ولاية . نصحته بأن يستغنى عن الليل ، ما يحمله من مخاطر قد تودى بحياته نفسها ، لكنه أصر أن يحمل بندقيته ، ويهدد خلق الله . وعدته بالمال ، ورجوته أن يتوب .. قال فى إصرار عجيب :

- هذه طريقى ..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

اشتهر عن ابن شفيقة أنه يتسلط على النفوس . رافق فراره من المركز ، بعد أقل من شهر ، حكايات لانهاية لها . قطع الطريق على المارة ، وفرض الإتاوات على أصحاب الدكاكين والمزارعين . حتى الأثرياء صاروا يتقون شره ، وربما لجأوا إليه للتخلص من خصومهم . وقيل إنه تحول إلى قاتل مأجور . هو خاتم لمن يدفع . الفلاح لا يقتل بنفسه ، لا يستخدم السلاح حتى لو كان يملكه ، لكنه يستأجر قاتلا محترفا . واستأجرته عائلات معروفة لقتل خصومها . احتاطت حتى لاتنور ساقية الثَّر . بدا ابن شفيقة كئنه عفريت ، يمشى بلا صوت ، كالظل . لا أحد يراه فى النهار ، وإن شعر الجميع بقرب أنفاسه فى الليل . يفاجئ من يريد فى المكان الذى يحدده ، وفى الوقت الذى يحسن اختياره . ثم يجرى إلى غيطان الثرة .

يختفى فيها ، من ورائه رجاله . تهتز شواشي الذرة ، ثم تسكن . أعمل حسابا عند نضج القصب أو الذرة . تتراعى الغيطان مخابىء لمن يريد الاختفاء . وقد يختفى وراء كومة سباح داخل الغيط الذى قلعت زراعته . ثم تعددت جرائمه : القتل العمد ، والشروع فيه ، والضرب المفضى الى الموت ، والاعتداء على المزروعات ، وتسميم المواشى ، والسرقه بالإكراه ، والحريق العمد ..

مد صبياناه فى أسباب حياته ، فاخترعوا مالم يحدث ، ومايصدر عن الخيال . انطلقت الشائعات والحكايات التى لايمكن تصديقها ، فى القهاوى، والغرز ، والحارات ، وتحت الجسور ، وعلى المصاطب ، ومدارات السواقى ، وأمام الكوانين وأثناء الغسيل على شاطئ التربة ، أو والأيدى تقنف بالعجين فى فوهة الفرن ..

لم يعد ابن شقيقة . صار شيئا آخر متوحشا . الرجال أمامه وحوله يحملون البنادق ، ونظرات الناس تتسلل اليه فى جلساتهم داخل قهوة صبحى طعيمة ، وكان طلخاوى البقال ، والغرز والغيطان ، ومن أخصة النوافذ ، وعلى الجسر . وصل أذاه الى أعشاش الطيور ، أعلى الأشجار ، وداخل ثقب البيوت . ربما أشعلوا النار فى ذيل قطة ، وأطلقوها فى الغيطان .

دخل حجرة الطبيب مازن علام فى شارع المديرية بالمنصورة . دفع قيمة الكشف ، وانتظر دوره . غاب الحجرة ويده لفة لا تستلفت نظرا . لعلها أنوية مجانية ، أعطاهها له الطبيب مراعاة لظروفه . دخل المفروض - بالقلق - إلى الحجرة . صاح لرؤية الطبيب موثقاً من يديه وكنتفيه على أرضية الحجرة ..

حتى الجرائم فى القرى البعيدة ، نسبت اليه . ربما نسبت له جريمتان أو ثلاث فى وقت واحد ، وفى أماكن متباعدة . يصدقها الناس . لا يناقشون صعوبة حدوثها .

بنت الحائثة الجديدة ، كل حائثة جديدة ، لابن شقيقة ، أهم مايتفاخر به الرجل من أبناء السمارة أنه عرف تفصيلاتها ، رواها له واحد ممن شاهدوا

الحادثة ، أو شاب التقى به فى غرزة على الطريق السريع ، أو فى أحد الموالد . ثم تبين له - بعد انصراف الرجل - أنه من صبيان ابن شفيقة .

جعل من قهوة صبحى طعيمة أذنأ يلقي فيها بنخبار يشغله انتشارها . تحيل الأذان ما التقطته إلى الأفواه ، تنقله على المصاطب ، وفى الأجران ، وداخل البيوت .
قال بشير النحاس :

سس س س س ..

تنبه فرج خليل لهسيس شواشى الذرة ، واقترب وقع الأقدام فى الأرض الطينية . كان الوقت ظهراً ، والصمت يحل على الفيضان . لا صوت إلا طنين الذباب وتكتكة وابور الطحين ، وعلى مدى الشوف من الأرض الترابية الفاصلة بين زراعات الذرة ، أشجار الكافور وشعر البنت ، وبيوت متناثرة ، تداخلت مع الفيضان أول القرية .

نط من رقده ، ونزل فى ساقية عائلة صفراته المهجورة ، أول الغيط ، تردنا فى النزول ، فلما علا الهسيس ، ووقع الأقدام المقتربة ، نزلنا وراءه .

قال لنظاراتنا المذهولة - عقب عودة الخلاء إلى اتساعه الساكن - :

- لا يتصور البوليس أننا نختفى فى ساقية مكشوفة !

قال عم طلخاوى :

انتشرت حادثة ضربه للبكباشى عبد اللطيف الدمياطى ، نمت الحادثة ، وتضخمت ، أضاف إليها الناس خوارق ومعجزات . بدكوا فى صورته ، فلم يعد هو ابن شفيقة الذى تابع الناس نشأته ، حتى صار رجلاً ، وشاهدوه فى الأسواق يبيع ويشترى ، ويتمدد فى قبيلوته تحت شجرة الجميز آخر الغيط ، ويغادر المسجد مع العشرات ، بعد أداء صلاة الجمعة .

وفد ناس من القرى المجاورة ، ليعرفوا المزيد عن الرجل الذى ضرب الحكومة .

نسى الناس الاسم الذى أطلقه عليه العمدة . خشوا إذا اعتابوا نطقه ، أن ينطقوا به أمام فرج خليل . أنقذ أعوانه خلّاف أبو كيّفه من يديه ، لما سأله مداعبا :
- بماذا أناديك : فرج خليل ، أم ابن شفيقة ؟

قال شحاتة عز الرجال :

أشار فرج خليل إلى بقرة انتفخ ضرعها باللبن :

- هناك جاموس .. علينا در ألبانها .

فهمت المعنى .

قلت :

- من تقصد ؟

- كلهم من خارج السمارة.

إختار فرج خليل سلاحيك بيت العمدة لنأخذ ما به من أسلحة . لا بأس من أن نقطع أسلاك التليفون ، ونستولى على الأسلحة . يتحول رمز السطوة عند العمدة ، إلى دليل مهانة .

فيما عدا العمدة ، فإن خليل لم يقف فى طريق أحد من أبناء بلدته، ولا حاول السطو على بيت من بيوتها، ولا ترصد لعابر طريق يسرقه . حفظ للقرية عاداتها وتقاليدها ، فهو ينقُط فى الأفراح ، ويعزى فى المناسبات الحزينة ، ويشارك فى إطفاء الحرائق ، ويمنع مياه الفيضان من إغراق الفيطان والبيوت ، ويصالح بين المتخاصمين ، ويرد من يجرى المياه فى أرضه ويتخطى الآخرين . وإذا أمن الأعين الراصدة ، صلى الأوقات فى المسجد .

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

لم يعد سير ابن شفيقة فى طريق الإجرام ، لأنه يبحث عن المال ، وإنما أصبحت الجريمة دماً فى عروقه ، مثل المدمن الذى تلج عليه لحظة التعاطى . ينفذ العمر حتى يهدأ . كان يعلم بالنهاية التى تترصد له فى نهاية الطريق ، لكنه لم

يناقش الجنبى ولا المصير . بدت حياته إيماناً لا يملك الفرار منه . صار مجرد ذكر اسمه ، يصب الفزع فى النفوس . تيقن الجميع أنه مغرق فى الشر ، لا ينتهى فيه إلى حد . ابن شقيقة لا يخرج فى صميمه عن قاطع طريق ونهاب ولص . ما يزيق به أعوانه أفعاله ، يبركه الناس ، يتنبهون إلى حقيقته .

برقية :

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية

بعد وافر الاحترام والسلام :

تشهد قرية السمارة ، مركز السنبلوين ، مديرية الدقهلية ، منذ فترة طويلة ، سلسلة من الجرائم ، أدى إهمال المسئولين عن الأمن فى المركز إلى زيادتها واتساعها .. فالمجرم فرج خليل زهران كون عصابة من الأشرار ، راحت تقتل الأبرياء ، وتروّع الأمنين ، وتعيث فى الأرض فساداً .

مبلغ علمى أن عمدة القرية الحاج سليمان عبد الواحد رجل فاضل ، يخرج الزكاة فى نهاية رمضان ، وينحى الأضحية فى عيد الأضحى ، ويساعد فلاحى السمارة بالتقاوى والسماد ، وربما أقرضهم أموالاً يستردها بعد بيع المحصول . وقد حاول أن يعد يد العون والمساعدة لسعادة مأمور المركز البكباشى عبد اللطيف الدمياطى ، والسادة الأفاضل معاونيه .. لكن سعادة المأمور رفض اليد الممدودة . ثم اتهم العمدة بالتقصير ، ونشر بين الأهالى أنه قد طالب بتغييره حالاً .

رأس الأفعى هو فرج خليل زهران . سعادة المأمور يعلم ذلك جيداً ، ويعلم أن قطع الرأس الشريرة يكفل عودة الحياة إلى قريتنا الوداعة ، المسالمة . ويعلم بالأماكن التى يتردد عليها فرج خليل ، لكنه يتقاعس عن أداء واجبه ، ثم يلقي بالتهمة على سواه من عباد الله .

أملنا كبير - على يدى سعادتكم - فى عودة الأمن والاستقرار ، إلى السمارة التى كانت - على النوام - موطناً للسلام والطمأنينة .

مواطن من أبناء القرية

برقية :

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية

بعد تقديم وافر التحية والاحترام

رافعه إلى سعادتكم ناصح أمين .

فإنه لما كانت قريتنا السمارة ، التابعة لمركز السنبلوين ، محافظة الذهلية ، قد ابتليت ببعض المسئولين الذين فرضوا الظلم والإرهاب على أهلها ، فإننا نلتمس من سعادتكم سرعة التصرف ، حتى لا يخرج أهالي القرية عن شعورهم ، ويتصرفون على النحو الذي ربما يهز صورة الأمن .

إن للمأمور المركز البكباشي عبد اللطيف الدمياطي مصالحه ، وعمدة القرية سليمان عبد الواحد مصالحه .. وهي مصالح تلتقى مع ما تريده عائلة أو اثنتان في المركز ، دون مراعاة لحق بقية المواطنين في الحياة الحرة الشريفة .

وحيث أراد أحد أبناء قرية السمارة - المواطن فرج خليل زهران - أن ينبه المأمور والعمدة إلى خطورة ما يفعلان ، وجها إليه التهم الباطلة.

فرج خليل زهران مواطن شريف ، يعمل ما فيه الخير لأهله وناسه . لم يؤذ أحداً ، ولم يرفع السلاح في وجه أحد . التهمة الحقيقية التي يفخر بها أنه رفض الظلم لنفسه ، ولغيره ، فاعتبر - ظلماً - من الخطرين .

نلتمس من سعادتكم إجراء تحقيق في السهرات المشبوهة التي يقضيها مأمور المركز، كل ليلة ، في قصر صفراته ، والثراء المفاجيء الذي حط على عمدة السمارة (زادت فدائينه من ثلاثة فدائين إلى سبعة وعشرين فدائناً في أقل من سنة واحدة) فهذا التحقيق سيكشف - بإذن الله - عن خيوط المساءة التي تحياها قرية السمارة ، ومركز السنبلوين بأجمعه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

ناصر أمين

قال بشير النحاس :

الكتب حباله قصيرة .

تأكد أهلنا فى السمارة من القداين التى أضافها العمدة إلى أرضه، من السهرات المشبوهة التى يقضيها المأمور فى قصر صفراته ، من الاستقرار الذى تواصلت به أيامهم، نون أن يلقاهم فرج خليل بلذى.. تؤكد الأهالى أن فرج خليل هو الأخ والابن والحبيب . وهو الذى نعى الهم ، وأراد أن ينهى مظالم المأمور والعمدة ، ومن يحبون على قوت الناس.

سيطر الخوف فى البداية . تحذيرات العمدة ، وحمولات عساكر المأمور، وضعت الناس فى دائرة الخوف . الألسن التى تخشى حتى الهمس. النظرات الزائفة . حتى الدور الطينية ، نام أصحابها بأعين مفتوحة.

لكن الكتب حباله قصيرة . بتواصل الأيام ، فطن الناس إلى حقيقة ما يجرى. أهملوا سماع تحذيرات العمدة ، ولم تشغلهم حملات عساكر المأمور ، وأضمرُوا النية فى مساعدة فرج خليل.

خالط كلام الناس عنه إعجاب واضح . فرج خليل ابن السمارة . يمتد ظل تخوفه إلى قرى بعيدة . حتى السلطة تعمل له ألف حساب . كان تقدير الناس له، لأنه هو الرجل الذى ضرب الحكومة . مما يشين ، فرض الإتاوات ، وحرق المزروعات ، والسطو على البيوت ، لكن الإعجاب بفرج خليل فاق ما هدهد من مشاعر . لم يعد للناس إلا استعادة ما سمعوه عن فرج خليل . الحكايات المثيرة تهمس بها الأقواء فى المجالس على المصاطب أمام الدور ، وعلى الكيمان ، وفى القاعات ، وساعة الخيز ، وفوق الأسطح عندما يتقدم الليل . إعتاد - فى سيره المفاجئ - بين حوارى القرية : تفاخر النساء ، وتطلع البنات من وراء الطاقات المواربة ، ومن فوق الأسطح ، وإفساح الرجال طريقه ، والقسم بأن ينزل ضيفاً على من يمر أمام داره ، وكان إذا مر على قعود ، هبوا واقفين . وكان الناس يغضون النظر ونحن نعيش فى الزراعية ، أو فى الطريق السريع ، والخطاطيف

تسحب البهائم وراعا . ادعى الكثير من العائلات نسبة فرج خليل إليها . يمنع اعتداءات الغرياء ، حتى لو كانوا من البوليس . لجأوا إليه ، يفصل في الخلافات حول من يروى زراعته أولاً ، من يسد الماء عن جاره ، الماشية التي تأكل الزرع المجاور ، سرقة المحصول والبهائم والطيور ، عدم تسديد إيجار الأرض في وقته ، مزاح الشبان لما يتقلب جداً ، وكان يقض المنازعات بين الأسر ، ويعيد المرأة الناشز إلى طاعة زوجها ، ويرعى المطلقات والأرامل واليتامى ، ويعطف على المعوزين ، ومن يلجأ إليه في حاجة ، أو مشورة .

لما بدأت زراعة القمح والفول والبرسيم في أواخر توت ، اختلفت عائلة صفراة وعائلة النخيلي على الحدود التي ينتهي عندها بذر التقاوى . علت الأصوات ، واختلطت ، وتشابكت ، وامتدت الأيدي إلى الفئوس والشوم . ظهر فرج خليل على الجسر ، فانتشعت السحابة الطارئة ، وعادت السماء إلى صفوها .

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

تعددت حوادث ابن شفيقة بون أن تتمكن من اصطياه .

لم يكن يترك غيطان النرة أو القصب إلا لفعل الأذى . يمضى مع صبياته معظم الليل فى السرقة ، وإتلاف الماشية ، وحرق الزرائب . يختفون قبل ظهور الصبح . منع الناس أولادهم من الذهاب إلى المدارس ، ولزم المزارعون بيوتهم ، لا يغادرونها إلى الغيطان . ظلت الأرض على حالتها ، لا هى بائرة ولا مخضرة .

المشكلة أن الناس لم يتقدموا ببلاغات ضد ابن شفيقة . لم يبلغوا عن مكان وجوده ، مهما كان المكان قريباً ، ولا جروا على الشهادة ضده . لا أحد رآه وهو يسرق أو يحرق أو يئمر . لم يكن السبب إيمانهم بما يفعله . السبب هو الخوف .

قال بشير النحاس :

عاش أهل السمارة فى ظل حمايته .

لم يعد الناس يهتمون بإغلاق أبواب البيوت ، ولا بعد البهائم ، ولمّ الدجاج والأوز من أمام البيوت ، أو التأكد من أن الحمام عاد إلى الأبراج ، وعندما شب

الحريق الكبير فعل فرج خليل ما لم يقطعه أحد. تصاعدت النيران ، طويلة ، لامعة ، مختلطة بدخان كثيف . ارتفعت بأصوات كالهشيم . أحالت البيوت والقراغ المحيط بها إلى لون أحمر . وانتشر الدخان ، فغطى بيوت القرية ، والغيطان . طالت النيران الرئيس ، وبقايا الحطب فوق الأسطح، وسعف النخيل ، وأجران الغلال . بدا كأن النيران طالت كل شيء . جرى الرجال والنساء بالقنور والزلع ، يحملون المياه من ترعة البوهية لإخماد النيران . فرض انتشار النيران نفسه ، فأسلم الجميع أقدامهم للجرى خارج القرية . فرج خليل وحده ظل ينادى ، يصرخ، ويحاول إطفاء النيران بما وسعه ، ويعيب على الذين جروا ما فعلوا.

لم يكن الحريق فى موسم الحطب ، فهو غير متبرّ إنن . ربما أحدثته شرارة كانون أو فرن ، أو عقب سيجارة فى موسم الحطب . يسهل إشعال الحرائق بكون مشتعلة على كومات الحطب المكسدة فى أطراف الغيطان .

قال سليمان عبد الواحد :

لم يكن الحريق وليد ذاته ولا مصادفة . جريمة أعد لها ابن شفيقة ، ونفذها صبيانه . رفضت القرية جرائمهم ، إبتزازهم وسطوهم وسرقاتهم وإتاواتهم . عاقبوا بالحريق . ظهر أمام النيران المشتعلة ، ليبرىء نفسه من اتهام الأهل . صارحنى الخفير النظامى صلاح كحيل بأن ابن شفيقة عرض عليه راتباً يفوق أضعاف ما يتقاضاه من الحكومة ، لينضم إلى صبيانه .

قال بشير النحاس :

الغريب الغريب ، السر الذى يجهله الجميع ، أن فرج خليل لم يسرق فقيراً ، ولم يقتل . رفض تنفيذ عملية ناجحة ، لأنه سمع بكاء طفل من داخل البيت الذى نعد لدخوله . اقتصررت سرقاته على الأغنياء . الرجل يترك الثور يموت نون أن يفكر فى توزيع لحمه على الفلاحين ، فلماذا ؟. السلاح فى أيدينا لمجرد التهويل . الشائعات والحكايات الغريبة تكلفت بقتل المئات . نسب إليه ما يصعب حصره من حوادث إتلاف المزروعات، وتسميم الحيوان، وهتك الأعراس ، وإزهاق الأرواح . لم

يكن يثيره إلاّ اتهام القتل . القتل كبيرة ، حرام فعلها . خلقنا الله ، وهو الذى يميّتنا . إذا رفع أحد سلاحاً ، أمرنا فرج خليل بتركه فى حاله ، والعودة . السلاح للدفاع عن النفس ، لا لأذية الآخرين . طرد يحيى الببوى من بيننا لأنه أطلق - ليلة - عياراً فى الهواء .

قال :

- لا أحب التهور .. ربما أطلقت عيارك الثانى فى المليان ! .
كان يكتفى بنظرات ثاقبة . فيتضائل من هو أمامه ، وينكمش فى نفسه .
وربما قضى بنظرته على إرادة خصمه ، تقتحمه ، وتشل حركته ، فلا يقوى على الفعل .

الأدهم صديقه ، وإن لم يتعرف إليه شخصياً . أنكر الخط وعود وسليم . سفاحون يقتلون ربما بلا داع . لم تنقذهم آلاف الأمدنة من غيطان القصب والذرة ، ولم ينقذهم الجبل .

قلت :

- الأدهم كذلك لم ينقذه الجبل .

قال :

- الخيانة وحدها هى التى قتلت الأدهم .

ثم بلهجة مداعبة :

- قتله صديقه .

وحين اكتشف فرج خليل أن صبرى الحاتى أخفى فى ثيابه معظم ما سرقه ، لم يضيفه إلى ما جمعه ، واكتفى بطرده .

قال وهو يتأمل خطواته المتباطئة :

- هذا التصرف عقابه القتل فى الجماعات الأخرى .

أضاف للوقفة الخائفة ، المتذلة :

- لن أناك بأذى .. إلاّ إذا خرج لسانك من فمك ! .

السّمارَة ليل طویل

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

كان ابن شفيقة أخوف من أن يخوض معركة. يرفع سلاحه للترويع، فيحصل على ما يريد . إذا واجه سلاحا، يعد صاحبه نفسه لخوض معركة . همس لأعوانه بالانسحاب ، لا يشغله إلا أن يبتعد خوفا أن تصيبه رصاصة . كان يدعى أنه يرفض القتل . ولم يكن ذلك صحيحا . قتلت رصاصاته الكثيرين بالغر ، ومن لا يحملون السلاح ..

احتفى خالد النشوقاتى ببيته . أطلق ابن شفيقة رصاصة حارقة على الحطب المكوم فوق سطح بيته ، فاشتعلت النيران . اضطر الرجل للخروج بأسرته ، فاستقبلتهم الرصاصات القاتلة .

قال صبحى طعيمة :

الشيخ التهامى رزق ليس مجرد إمام لمسجد السمارة، فهو يتولى الإشراف على تعليم الأطفال بالكتاب، وهو قارئ القرآن فى المناسبات، والمتون الذى يحرق عقود الزواج والطلاق، وإن اعتز بأنه لم يوافق على طلاق زوجين من السمارة، إلا بعد أن بذل ما وسعه لتأكيد أن الطلاق هو أبغض الحلال ..

أكد البكباشى عبداللطيف الدمياطى أن ابن شفيقة قد اشترى الشيخ التهامى رزق ، فهو قد فاجأ المصلين فى خطبة الجمعة بما لم يتوقعوه . عاب عليهم ثراء هم وما يكتزون . نكروهم بالموت والحساب والعقاب، وطالبهم بالتوبة ، ورد الحقوق إلى أصحابها، دون أن يحدد من هم أصحاب الحقوق ..

نفى العمدة أن يكون الشيخ التهامى رزق قد باع نفسه، فهو رجل فاضل ، تعلم فى الأزهر، ودرس العلم على أيدي متفقيهيه ..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

أحطنا السمارة كالقيد . عساكر بوليس وهجاة ومخبرين سرين ومرشدين . أبطلنا وابور الطحين، منعنا دخول مواد التموين، وحظرنا التجول . فقتلنا البيوت

والدكاكين وفوق الأسطح والأقراص، وقهوة طعيمة ويكان طلخاوى البقال . حتى المسجد فتشناه ، ثم منعنا التردد عليه ..

أسلم ابن شفيقة نفسه فى اليوم الرابع، بلا مقاومة . رحلناه - عصر اليوم - إلى جبل الطور ..

قال عم طلخاوى :

حين طلبت منه أن يروى ظروف عوبته من صحراء سيناء، واجتيازه القناة من الضفة الشرقية إلى مدن الضفة الغربية، اكتفى بكلمات مدغمة، ثم صمت .. عرفت أنه يريد تناسى ما حدث له ، منذ فر من المعتقل ، حتى وصل إلى السمارة ..

قال بشير النحاس :

روى لنا ظروف عوبته من الطور إلى السمارة . المساحات الخالية بلا أسوار . حتى أبواب العنابر بلا أبواب . لا شئ إلا الرمال ، وتقلبات الجو ، والعقارب ، والحراس المتباعنون، القيود التى تؤذى القدمين إن سارع فى خطواته .. خلف كل شئ وراءه ، ومضى نحو المجهول . توقف عند أول بيت لببوى . دفع ما معه لقاء تكسير القيود، ثم واصل السير فى طريق ، حددها له الببوى . لا يشغله التعب، ولا تشققات القدمين، ولا صراخ البطن، حتى لاحت الضفة الأخرى ..

ظل ممددا على السرير ، لأيام ، يعانى تورم قدميه، وتسليخهما ، وتشقق شفتيه، واكتواء جلده الملتهب بملح المياه فى القناة. قضى أياما يعالج قدميه، يريح جسمه . ثم فاجأنا العمدة بالسطو على زريبة بيته، وسحبنا الماشية إلى أسواق بعيدة، فبعناها ..

مذكرة :

حضرة صاحب السعادة وكيل وزارة الداخلية :

تحية طيبة، وبعد :

يتشرف برفعه إلى سعادتكم البكاشى عبداللطيف الدمياطى ، مأمور مركز السنبلوين .

فبالنسبة للحوادث المؤسفة التى يشهدها المركز منذ فترة، والتى أمرتم - حرصاً على توفير الأمن والاستقرار - بضرورة وضع حد لها ، فلا يخفى على سعادتكم أن المدعو فرج خليل زهران، الشهير بابن شقيقة ، ليس هو السبب المباشر لتلك الحوادث المؤسفة . إنه أداة منفذة فى أيدي عصابات الشر والإجرام، بالإضافة إلى بعض الأسباب الأخرى التى أرجو أن تأتينا لى فى إجمالها بما يلى :

- انتشار الأسلحة فى أيدي الأهالى، وفى أيدي أبناء السمارة بالذات، وهو ما يعد مسئولية مباشرة لعمدة القرية، الذى أرجو أن تأمروا بعزله ، واختيار عمدة آخر بدلاً منه ..

- إحجام المواطنين عن الإرشاد على الأماكن التى يتربد عليها فرج خليل زهران، خوفاً من الانتقام ..

- إن الاعتماد على إيفاد حملات البوليس إلى المنطقة، لإقرار الأمن فيها، ليس هو الحل الأمثل، لأنه يقلل من قيمة المركز فى نظر الأهالى . والأفضل أن يدعم المركز بما يجعله أقدر على حماية الأمن، وردع المجرمين ..

إن المحافظة على الأمن فى المركز هى - أولاً - مسئولية المركز نفسه ..

- انتشار الأسلحة المرخصة، وغير المرخصة ، فى أيدي الأهالى ، وأهالى السمارة بالذات . وإذا كان من مسئولية المركز أن يلقى القبض على حاملى الأسلحة غير المرخصة ، فإن القانون يمنع مصادرة الأسلحة الأخرى ، المرخصة ، وكلها أسلحة متطورة، بالقياس إلى أسلحة البوليس ..

لذلك ، فإننى أرجو التكرم بالموافقة على مصادرة كل الأسلحة ، لأن بعض الأهالى يساعدون ابن شقيقة - للأسف - بسلاحهم المرخص ..

قال صبحى طعيمة :

صحوت على طرق الباب . ضابط وثلاثة عساكر ..

قال الضابط :

- أين المسدس ؟ ..

قلت :

- أى مسدس ؟ ..

صرخ :

- مسدسك ..

- أنا لا أتعامل بهذه الأشياء ..

زغنى فى كتفى :

- نحن نتعامل بها ..

قلت فى عدم فهم :

- ماذا تريد منى ؟ ..

- المسدس ..

أشار الضابط ، فاقترأنى العساكر إلى خارج الدار ..

كان قد سبقنى - فى البوكس - رجال وشباب من السمارة ، ميزتهم ،

وتبادلنا الأسئلة ، وطرحنا التوقعات ..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

وافق وكيل الداخلية على كل ما طلبت . وضعت شروطا واضحة ، ومحددة ،

يقابلها الاستقالة . كرامتى كفة الميزان الراجحة . هذا هو قرارى عبر رحلتى

الوظيفية ما بين كفر النوار ودمهور وبنى سويف والبايتا ، حتى أصبحت مسئولا

عن الأمن فى مركز السنلاوين ، الأهالى طيبون ، مسالمون ، يعملون للبوليس ألف

حساب . ابن شفيقة نبات شيطانى ، لا بد من اجتنائه . وزع القروش من آلاف

الجنهات التى سرقها ، على أهل السمارة ، فاستمالهم . خدعهم بحيل يصعب تصديقها ..

بدأنا بجمع السلاح ..

أذهلتنى الأرقام . أجاد اللعين توزيع السلاح فى بيوت الأهالى . حتى هؤلاء الذين أعلنوا كراهيتهم له . حتى الغلبة والمنكسرين والذين لا يعينهم سوى قوت يومهم . حتى الشيخ التهامى رزق صادقت أيدى العساكر طبنجة تحت وسادته . زاغت عيناه ، وتلعثم ، وأنكر . علقت رجلاه فى الفلقة ، فاعترف . ارهاب ابن شفيقة لهم عذر سخيف ، هل حول القرية إلى عصابة ؟ .. هل دانوا بالولاء للجريمة ؟ ..

أمرت ، فظلت الدوريات داخل القرية طيلة اليوم بكامله . أفراد ، وسوارى ، وسيارة ، وضباط ، أطلقت المخبرين والمرشدين ، يسألون ويتقصون ويطيّلون النظر إلى الوجوه ، وإلى ما فى الأيدى . زادت الأعين المبتوثة من انتباهها : من يحيد عن الطريق ، ما بين بيته وعمله ، من يحدث الآخر همساً ، من يجلسون على الجسر بلا هدف ، من يترك - أو يصل - بيته ليلا . التردد فى الإجابة يعنى إخفاء ما لا ينبغى إخفاؤه . دارت الفلقة على أرجل الكثيرين . السؤال المحدد : أين يختفى فرج خليل . الأسطورة التى أجاد أعوانه نسجها ، البشاعة والقتل التدمير ، الانتقام يتواصل حتى أصفر الأبناء ، المقابل المجهول يتحدى الاعتراف بضغط التعذيب .

خطب الشيخ راشد الوكيل فى صلاة الجمعة : التستر على المجرم عقابه فى الدنيا والدين . تناثر عقد المصلين ، حتى ذابوا .. استوقف العساكر مصلياً ، وآخر ، وثالثاً ، رابعاً ، ثم توقفوا ، زاد العدد ، فشمّل كل المصلين .. أرفض اليأس . ابن شفيقة هدف ، رفضت التخلّى عن بلوغه ..

قال بشير النحاس :

حط الجراد على القرية ، مئات العساكر ، والخوذات ، والبنادق ، والدوريات
الراكبة ، والمترجلة ، والأسئلة المتوالية ، والضرب ، والتعذيب ، والحبس ، اختفاء
فرج خليل مسئولية الأهالى . كانوا - فى الحقيقة - يعرفون طريقه ، أين يقضى
الليلة ، وأين يسدد ضربيته غدا . المساعدات تواصلت - بالإعجاب والحب - من
كل دار . إخفاء السلاح ، تقديم صوانى الطعام . توصيل الرسائل . مراقبة
تحركات البوليس ..

جمعوا الأهالى بالعشرات . حتى النسوة والعجائز والأطفال . دارت السيور
والكراييج والشوم . السؤال الذى يعرف إجابته الجميع ، ظل - رغم التعذيب -
معلقا بلا جواب ..

طلق الشرر فى عينى المأمور ، وهدد بالمزيد . راقب بنفسه تفتيش القرية .
قذف العساكر محتويات كل بيت خارجه . سوا العصى فى كيماى السباخ والفة ،
ونثروا عيدان الحطب . عثروا على بعض قطع السلاح التى أخفاها الأهالى . أنكر
الجميع معرفتهم ، حتى بمصنر السلاح ..

باع الأهالى بهائمهم ، أو استدانوا ، واشتروا أسلحة ، أخذها مأمور المركز
ليتجنبوا أذاه . كلما حصل المأمور على أسلحة ، ذاع صيته ، وأكد قدرته على
جمع السلاح ..

أوعز المأمور للشيخ راشد الوكيل - وهو غريب عن القرية - فدعا المصلين فى
صلاة الجمعة ، إلى الإرشاد عن مكان فرج خليل . رفضوا سماع الخطبة .
ورفضوا الصلاة وراءه . زاموا ، وتململوا ، وغادروا المسجد . واجهوا - قبالة
المسجد - كهوب البنادق والشوم . مع ذلك ، ظل مكان فرج خليل سرا فى صدور
الجميع .

المعلم يلقى نصائحه

قال سليمان عبدالواحد :

هل أصبح ابن شفيقة أسطورة ؟ ..

إخفاق المأمور تبدى فى استدعائه لمئات العساكر من البندر . أحاطوا بالسמارة ، وجاسوا خلالها . قلبوا عاليها أسفلها . طالت أيديهم كل شئ . لم يرعوا حرمة ولا بيتا . دسوا السلاح فى بيوت الأهالى . بات الجميع ، الجميع ، شركاء لابن شفيقة فى جرائمه . العصاة ثلاثة أشقياء ، وربما أربعة . المأمور أعلم الناس بالأمكن التى يتربدون عليها ، وأين يقيمون . دس السلاح للأهالى ، ليثأر من شماعتهم . ابن شفيقة اللعين جعل منه أضحوكة . فاجأه - بمفرده - على الجسر ليلا . جرده من ثيابه ، واختفى . سرق مسدسه الميرى من فوق مكتبه . اعتادت السمارة مالم تكن تعرفه : نويرات البوليس ، وصيحات الهجانة تشق ظلام الليل ، وحوارى القرية خالية ، وإن شغت الحياة داخل البيوت ، وفوق الأسطح ..

قال شعاته عز الرجال :

الشهامة ساقط فرج خليل إلى السجن . ضبطه البوليس وهو يفادر بيت الشيخ التهامى رزق ، المطل على دابر الناحية . أحزنه ما جرى للشيخ على يدى البكباشى الديمياطى ، فعاده . قدمه المأمور إلى المحاكمة بتهمة كثيرة : القتل ، والشروع فيه ، ومقاومة السلطات ، والسلب ، والنهب ، وإتلاف المزروعات ..

دعا البكباشى الديمياطى أهالى السمارة للإدلاء بشهاداتهم . رفضوا ، وتركوا القرية ، قبل موعد المحاكمة بأيام ، حتى لا يأخذهم البوليس ..

قال الشيخ التهامى رزق :

امتلات قاعة المحاكمة بمن يعرفون فرج خليل ، ومن دفعهم الفضول لرؤيته . لم تعد إلا أجسام متلاصقة . أما الذين لم يجدوا أماكن للجلوس ، فقد أمر القاضى بإخراجهم من القاعة . وقفوا فى القاعة الداخلية ، وأمام ساحة المحاكمة ، يحاولون متابعة ما يجرى ..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

الله حى ! .. الله حى ! ..

تصاعد النداء ، تعالى ، تشابك ، امتد . لا أنكر من كنت أحادثه . المكتب - دائما - يشغى . أدركت اللعبة . أغلقت باب الحجرة ، ورفعت من صوتى . لو أنى أمرت بالصمت ، فريما قامت خناقة . ذلك - بالقطع - ما كان ينشده . حلقة الذكر باب جهنمى إلى الهرب . الداهية يقلت من خرم الإبرة . علت الصفاير فجأة . أشارت الأيدى إلى الحفرة الواسعة فى جدار العنبر . ضبط المثقاب الذى لا أعرف كيف سريه . اسم الله دارى فعلة الشيطان ..

صرخت :

- عاوز تهرب يا ابن شفيقة ؟ ! ..

قال بشير النحاس :

ضايقته أفعال الدمياطى . تحاشى مواجهته ، وسلط العساكر عليه . هز كتفيه لكل شئ . بادل العمدة تسميته ، فجعل أمه شرموطة . العساكر ينادونه يا معلم . الحجز يرقد فى حضن فتوته . الخلان أوفياء .. لكن الجوحامت فى سمائه الغربان . لم يقبض عليه أحد ، فلماذا التباهى ؟ ..
أدخلنا المثقاب ، وأقمنا الذكر . اتسع الثقب حتى جاوز جسم الإنسان .
أشار، فصرخنا . وجه الدمياطى مثل الليمونة :

- هل أنيتك ؟ ..

قال :

- وهل تستطيع ؟ ..

- فلماذا ؟ ..

فى لهجة باترة :

- أريد أن أترك المركز حالا ..

كان عبداللطيف الدمياطى على ثقة أن فرج خليل يستطيع أن يترك المركز من

الباب العمومى ..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

قال ابن شفيقة :

- ليس فى السجن ما يضايقنى ..

وعلا صوته :

- ولا يوجد من يضايقنى ..

وفاضت عيناه بنظرة شر :

- سأخرج لسبب آخر ..

وأخرج من جيبه صورة ولده الصغير ..

أمرت ، فنقله العساكر إلى سجن البندر ، واسترحت من شره ..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطى :

لم أصدق أن ابن شفيقة يهرب من الزنزانة المصمتة ، فيما عدا كوة ضيقة لا

تتفد منها أصابع اليد ..

كيف ؟ ومتى ؟ ومن الذى ساعده ؟ ..

قال بشير النحاس :

لم يكن فى بال فرج خليل أن يفر من سجن المديرية . تحديه لعبداللطيف

الدمياطى هو الذى ألقى عليه قراره . خطط ، ودير ، وهمس لمن يريد الاستعانة

بهم . قرر أن يولى المكان ظهره ، وينطلق إلى المجهول . طمأن نفسه - فى البداية

- بأن الأعوام الثلاثة تنتهى فى لمح البصر . لا شأن له - بعدها - بالعمدة ولا

المأمور ، ولا حتى نيا الليل ..

قال الدمياطى بلهجة متوعدة :

- حتى لو انتهت مدتك ، فسأعتلك بمقتضى قانون الطوارئ .

لا فائدة إذن . والأعوام الثلاثة قد تجر أعواما أخرى ، فلا يغادر السجن إلا إلى القبر . واتخذ - فى الليلة نفسها - قراره بالهرب .. رجونا - حتى لا يتعد عنا - أن يؤى - لفترة - فى أحد البيوت الآمنة بالمنصورة . رفض ، وعدد الأسباب : المنصورة مثل الحق ، والناس يتابعون حكاياته ، ويضيفون إليها ، والبوايس يعنى - أولا - بالمدن القريبة . قرر أن يسافر إلى القاهرة . يجد المختفى فى المدن الكبيرة عوامل تساعد على نجاح مهمته ، أكثر مما يجده فى المدن الصغيرة . تدفق الحياة فى المدن الكبيرة ، واختلاط الناس ، لا يجعل الغريب يستلفت النظر ، عكس ما يحدث فى القرية ، أو فى المدينة الصغيرة ..

صحبه إلى القاهرة ..

نصحنه أن يطلق لحيته ، فرفض . قال :

- التتكر ألا أبوشاذا عما ألفه الناس . إنهم فى المدينة يطلقون لحاهم ، وربما شواربهم .. فلماذا أخالف المؤلف ؟ ..
وقال :

- إن أول ما يلفت النظر ، كل ما هو شاذ من منظر ، أو ملابس ، أو حركة ، أو عادة . البساطة هى خير أساليب التتكر .
ورفض أن يرتدى نظارة سوداء :

- حتى لو ادعيت العمى ، فسأثير انتباه إنسان .. من بين النظرات المشفقة ، ربما تدقق عين لثيمة ، عارفة ، فتعرف حقيقتى ..

حين اختار لإقامته فى القاهرة شقة مغروشة ، تطل على ثكنات قصر النيل ، وعلى ميدان الإسماعيلية من ناحية سليمان باشا ، خاطب الدهشة فى عينى سلامة حسبو :

- لو أنى أقمت فى حارة ، أو شارع شعبي ، فسيفطن البوايس إلى مكانى ..

أفأض فى شرح ما غمض عنا : الناس فى الأحياء الشعبية يميلون إلى لاط والصدقة . يسقطون الواجز ، ويسعون إلى التعارف بمجرد أن يأتى الوافد الجديد . يتقبن عن أصله وفصله . ناس الأحياء الراقية ، كل واحد فى حالة . يغلط عليه بابه ، لا يحادث الآخرين ، ولا يحادثه الآخرون : صباح الخير يا جارى .. إنت ف حالك وأنا فى حالى .. حتى الصباح لا يلفظه اللسان إلا لضرورة..

مع ذلك ، أذاع عن نفسه - كما روى لنا - بضعة أخبار ، إشباعاً لفضول الناس : اسمه ، وبلدته ، وصناعته ، وسبب سكناه . حرص على تلك المعلومات جيداً . وعلمنا أن الاختلاف فى الأقوال والروايات التى تذاغ عن الإنسان ، تجر مصيبة .

أثناء سيره ، يرفع رأسه إلى أعلى ، ويرمى بنظره إلى أبعد مدى ، يشمل رقعة كبيرة من الأرض فى لحظة واحدة . فهو يلم بشخصية كل فرد من السائرين واحداً ، واحداً ، قبل أن يقتربوا منه . يسخر من الذى يسرع فى خطاه ، ولا ينظر إلا إلى الأرض . فى عدم نظره إلى الناس ، لا ينظر الناس إليه ..

من نصائحه : التزم الحركة الطبيعية ، المألوفة . لا تسرع ، ولا تبطل ، ولا تلتفت سريعاً ، ولا تصدق بلا سبب ، ولا تباعد حتى عن من ترتاب فيهم ، وإلا ضاعفت من شكوكهم . وإذا مسحت وجهك بالمنديل ، فإن الإطالة تبعث عن الشك . إذا سرت فى الشوارع ، لا تتردد فى مشيتك . وإذا ركبت تراماً ، عانيت زحام الأوتوبيس ، خالطت المارة ، فلا ترتبك . كلم الناس وضاحكهم ، وكن طبيعياً . فإذا اشتبهت فى أمر إنسان يطيل التحقيق ، أو يطيل الإنصات ، لا تأبه . سرعة التحول من حال إلى حال تثير الريبة ، وتؤكد الظن . وحين يسألك أحد عن اسمك ، وتقول له - مثلاً - محمد على حسن ، فإنه يسأل : والنقب ؟ - يعنى اللقب - وربما أجبتة : هذا هو اسمى . ويعلو صوته بالدهشة : أليس

لعائلتك لقب ؟ . تقطن إلى ما يقصده فتقول : السنبلأوينى أو النمياملى أو جاد الرب . لقب العائلة مهم . على الأصل نور كما يقول المثل . حتى لو كنت ضعيفاً ، لو أن أعماقك هزها الخوف ، لا تعرى ذاتك لخصمك . غالب ضعفك ، اكتمه . إذا أحس أنه الأقوى ، لابد أن يحاول فرض قوته عليك . يؤذيك بالقول ، أو بالفعل ..

علمنا ألا نغفل ، فننسى أسلحتنا . السلاح هو روح من فى ظروفنا . حتى فى النوم ، فإن السلاح يجب أن يدس تحت الوسادة ..

زاد البوليس من حصاره ، فاشتد فرج خليل فى التخفى . استأجر الشقق المفروشة ، وتسطح فوق القطارات ، ونام فى الحداثق ، وذاب فى الموالد ، وتطوح فى حلقات الذكر ، وبخل نور السينما ، لا ليشاهد ، وإنما لينام ..

غير زيه أحياناً ، فتتناقض الثياب صورة الحياة فى المدينة الكبيرة . ارتدى الجلابية والجبة والبذلة والأقرول ، لكنه لم يخرج عما ألفته أعين الناس ..

لما ظهر فرج خليل - ثانية - فى السمارة ، أحنطنا المفاجأة . تصورنا أنه سيطيل إقامته فى المدينة الكبيرة . غالبنا التردد فى العودة إلى حياة الليل . أزمع شحاته عز الرجال العودة إلى قريته تملى الأمديد ، البعيدة عن السمارة ..

قلت :

- إذا أريت النسيان ، فهل ينسى البوليس ؟ ..

ظهر فرج خليل فوق رؤوسنا ، فنوت الأحاديث ، واستعندنا عافيتنا .. كان الغروب قد حل ، وخلت الغيطان من البشر والبهائم ، وتعالى دخان الكوانين . وكانت النسائم تهز شواشى الشجر والنخيل ، وأعواد الأرز الدقيقة ، فى الغيطان الممتدة أمامنا إلى نهاية الأفق ، وروائح النعناع

والريحان تأتي إلينا من حديقة دار صفراء القرية . وثمة أصداء لصوت وابور

الطحين ..

قال :

- كان لابد أن أعود ..

قلت في إشفاق حقيقي :

- البوايس لم يخفف حملاته ..

قال :

- شوقي إلى السمارة أقوى من خطر البوايس ..

قال سلامة حسبو :

- هل نعود إلى حياة الليل ؟ ..

قال فرج خليل :

- يبدو أن حياة الليل هي قدرنا ..

قال بشير النحاس :

أصبح اختفائنا - إن استعصى الخلاء - داخل نباتات التيل
والكنان وعباد الشمس ، وفوق الأشجار على حواف الترع والفيضان .
البوايس يجعل همه البحث في الزراعات العالية ، فلا يفتن إلى أماكن
اختفائنا ..

لم يعد يلفت نظره متابعة لمخبر أو مرشد . يعرفهم بالاسم ، يشدد
علينا فلا يفلت من رقابتنا وافد جديد إلى المركز ، أو رجل من السمارة
والقرى المحيطة يستدعونه إلى داخله .

لا نتوقف متابعتنا حتى نطمئن إليه ، أو نخضع تصرفاته لمراقبتنا . لا نستثنى
أحدا ، ربما أقدم على خيانتة ، أو التآمر من وراء ظهره ..

بهيية الطوانى

قال الحاج سليمان عبد الواحد :

أنت تستطيع أن تحكم على المرأة ، بمجرد أن تراها فى الطريق ، تتابع خطواتها ، سريعة لاهية . أم هادئة متزنة ، تتلفت فى سيرها ، تدقق فى ملامح الآخرين وتصرفاتهم ، تغطى رأسها بما يخرج عن المألوف ، أو لاتغطيه على الإطلاق ، تبادل أحد الرجال - حتى لو كان فى سن أبيها - صباح الخير .. صباح النور .. كيف حاله ؟ .. كويسة! .. النظرات لابد أن تتجه - متغيرة - إليها ، تلحظ جرائنها وماتخفيه ..

لم تكن بهية الطوانى امرأة مثل بقية النساء . عرف عنها قدرتها على استمالة الرجال. لو كانوا متزوجين . تضع عينها فلا ترفعها حتى تغوى الرجل . كان أبرز مايميزها قامة أقرب إلى الطول ، وعينان سوداوان ، واسعتان ، وإذا فكك شعرها وهى واقفة ، انسدل على ظهرها إلى الساقين ..

كانت غجرية الأصل . هجرت أهلها ، واستقرت فى القرية لما أتى بها عبد الصبور السحرتى - شيخ الخفراء الراحل - من البندر ، زوجها له . ظل طبعها فى دمها ، لم تستطع إخفاءه . سيطرت على زوجها ، حتى مات ..

صرفت على حياتها من التردد على بيوت المستورين . تعجن ، وتخبز ، وتطبخ، وتغسل الثياب والمواعين ، وتكنس ، وتطعم الطيور ، وتجمع الحطب ، وتجلب الماء من ترعة البوهية ، وتشعل النار فى الأعواد التى أفسدها ماء المطر ، وتربط البهائم السايبة فى السلايب ، وتسقيها ، وتقدم لها العلف ، وتعد الشاي والقهوة لأصحاب البيوت وزوارهم . أذكر سيرها خلف البهائم ، تجمع الروث ، تصنعه جلة مع القش أو التبن ، تجففها فى الشمس ، ثم تبيعها وقودا للأفران.

• قيل إنها عرفت مصابغة الشبان قبل أول حيض لها . رويت حكايات كثيرة عن اختلاؤها بشبان السمارة ، داخل غيطان النرة . تسبق فى النحول . يتبعونها ، واحدا بعد الآخر .

ضبطها شيخ الخفراء توفيق اسماعيل وراء الكومة . مع شاب من القرية . أو أكثر ، يحتمون بالظلمة ، بعيدا عن الأعين . أطلق عيارا فى الهواء ، فسبقت من كانوا معها بالفرار . ميزها - كما روى لى - من فستانها المنيل بكرانيش . كانت ترتديه فى الأسواق القريبة ، طيلة النهار الفائت . شوهدت مع رجال تحت ماكينة الدرس . تركتها لأنها امرأة . ولاية ، يكفى نيران الأقاويل فى هشيم أذان القرية ، بينما زف الرجال الغرياء عن السمارة بعلقة ، إلى الناحية المقابلة ، التابعة لمديرية الشرقية ..

كانت تشير الى ابن شفيقة فى جلسته على قهوة صبحى طعيمة ، ثم تختفى . تغادر البيت - بعد دقائق - وهى ملتفة بملاء تها السوداء . تميل ناحية المدق المغضى إلى الغيطان . يستأنن فى لهوجة ، ويتبعها ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

حفيت قدما بهية الطوانى فى الموالد والأنكار والمدن والقرى والأسواق ، ترافق فرق العوالم . تهز خصرها الى جوار المغنى ، أو ترقص بمفردها . ثم استقر بها الحال فى السمارة ، تكنس ، وتغسل ، وتغريل القمع ، وتقرص العجين ، وتخبز فى نور القرية ، وتطعم النجاج والحمام والأرانب . وكانت تملأ الأزيار من التربة ، وتنظف الحواصل ، وتفرش الرماد تحت حوافر الجاموسة ، وتكوم السبخا فى ركن الزريبة ، تحمله على الأثان ، ويتبعه إلى الغيط . وتحمل قفف الغلة ، وتجمع الجلة من وراء البهائم ، تجففها فى الجرن ، وتبيعها فى سوق الاثنين . لم تكن تملك مورداً آخر . إلا إذا سبقت أحد الشبان داخل غيط نرة أو قصب ..

كان الولد يقترب منها ، يهمس فى أذنها بكلمات تتطلق بعدها الى داخل الغيط المجاور . يمضى وراءها . يغيبان ساعة أو أقل ، أو أكثر . ثم تخرج من الغيط ، وهى تنفض ثوبها ..

اعتاد الناس رؤيتها تتسلل فى الظلمة إلى داخل غيطان النرة ، بعد صلاة العشاء . يتبعها ناس من القرية، يثلع الرجال الجلابيب ، ويك الشبان أزرار البنطلونات ..

كانت أيدى الرجال تعبث بجسمها ، فلا تصد ولا تبتعد . وكانت تشغل الرجال حتى وهم فى أحضان زوجاتهم . عباراتها . إشاراتنا ، إيماءاتها ، تهديداتها ، عرى صدرها وساقها .

لم يكن لبهية الحلوانى إلا نفسها ، تعتمد عليها فى تدبير الوجبة التالية ، وفى شراء هدية تسترها ، وبنفع إيجار حجرة علوية فى دار سمعان شنودة ، أول الطريق إلى قرية حانوت ..

أدركت المرأة - لضمان تجنب الأذى - أنه يلزمها رجل يعطيها اسمه ، ويحميها ويدافع عنها . مشطت شعرها ، وحكت كعبيها بالحجر ، واستخدمت الألوان ، وقيل إنها ظلت تغنى من وراء نافذتها ، بصوت يسمعه الجالسون فى قهوة طعيمة :

ع الزراعية يارب أقابل حبيبي .

فطن ابن شفيقة الى النداء ، فhez رأسه بما يعنى الفهم . لزم القهوة معظم الوقت . يرفع عينيه ناحية الشباك المطل على قهوة طعيمة ، يطمئن إلى وجودها . ترفق الشباك بساعديها ، أو تلتصع عينها من وراء الخصاص المفلق . يبتسم فى معابئة . خطرت أمام القهوة ، ترتدى القوب الاسود فوق ملابسها الملونة . لحق بها فى انحانة الطريق . تقابلا على الزراعية ، وتواعدا . تسلل - فى مساء اليوم نفسه - إلى بيتها ..

ظل الناس يشاهدونه ، وهو يدخل بيت بهية الحلوانى متسللا فى ظلمة الليل ، ويشاهدونه وهو يغادر البيت آخر الليل ، قبل أن يؤذن الشيخ التهامى رزق فى المسجد لصلاة الفجر .

وكانت تيسر له، ولرجالها ، لقاء الغوازي في بيتها ، تأتي بهن من الموالد ، ومن الطواف بالقرى ..

قال بشير النحاس :

أصل المرأة يدل عليها ..

المرأة من عائلة الحلواني . عائلة لها عزوبتها في مديرية البقالية ، وامتداداتها في مديريات قريبة وبعيدة . زوجها الأول كان مدرسا بالمنصورة الثانوية ، فاجأته أزمة قلبية ، أسلمته إلى القبر قبل أن يغتو أذنانين . لم تكن أنجبت منه ، لكنها ظلت على ذكراه ، فاعلقت باب بيتها ونوافذه . لاتستقبل إلا نساء عائلتها وصديقاتها من نساء القرية . وإذا سار في شوارع القرية موكب عرس أو ختان أو شوار ، اكتفت بالنظر من الشباك الموارب ، وإذا نزلت الطريق ترتدى ثوبا مرسلا فضفاضاً ، مغلقاً من العنق ، وله أكمام طويلة واسعة ، بينما أحاطت الرأس والجبهة بطرحة سوداء ، فلا يبين إلا عينان مكحولتان . وحين تسلم على أحد ، فإنها تغطي يدها بطرف الطرحة السوداء ..

قال شحاتة عز الرجال :

كانت بهية الحلواني ترقب فرج خليل ، عندما يجلس - في الليل - مع رجاله في قهوة صبحى طعيمة التي تطل عليها نافذة بيت بهية الخلفية . صوته الواثق ، الأمر . وإنصاتها لأحاديثه ..

قيل إنها عرفت حتى السنة المكسورة التي وضع في مكانها أخرى نهبية . وإن لم تكن قد التقت به ، أو رأت في الظلام ، فلم تنق في ملامحه . استكرجت ناس السمارة في أحاديث لاتنتهي عن فرج خليل . ملك عليها حبه نفسها . راحت ترصد أنباءه . تهمس متسائلة : كيف ينام ويكل . تعلن عن مخاوفها من مطارادات البوليس ، تنتظر - مشوقة - زيارته القليلة إلى قهوة صبحى طعيمة . تجرأت ، قنبتها - بواسطة أحد رجاله - إلى كمين دارت به أحاديث القهوة في غيابه ..

لم نعرف عنه أنه نظر إلى امرأة بشهوة . سرت معه في الأسواق . في منن
لا يعرفه ناسها ، ولا يطارده فيها البوليس . تابعت نظراته في الدكاكين والبنائات ،
ربما تأمل المارة والجالسين على أبواب الدور ، وعلى الأرصفة . لكنه كان يعبر
النساء بنظراته ، لا تستوقفه امرأة ، مها بلغت محاسنها . وقيل إنه ليس له في
النساء ..

لفعت إليه من يهمس في أذنه ، بأن يتقدم لها ، فيتزوجان في الحلال . فاجأه
العرض . ظروفه لاتيح له الاستقرار ، أو تكوين أسرة . لما أفهمته أنها تعلم بكل
مايعانيه ، عرض المسألة علينا . قال إن رأينا معا يهमे ، وإن بدا أنه قد اتخذ
قراره فعلا ..

قال له سلامة حسبو :

- الولاية عينها عليك من زمان ..

لم يرد ..

قال سلامة حسبو :

- على خيرة الله .. تقدم لخطبتها ..

مز رأسه بتأثر :

- من يمكنها الحياة مع مجرم ؟ ..

قال سلامة حسبو :

- لست مجرما يامعلم فرج ..

فاجأنا بالقول :

- إذا أنجبت .. من يرعى أبنائي ؟

قلت :

- الله يرعانا جميعا ..

وغلبني الانفعال :

- إنها امرأة بألف رجل !..

حياة الليل لها ثمنها . الفرار والمطاردة والخوف والتوقع . خلق الله النساء للرجال ، حتى ينجبن لهم البنين والبنات . كان فرج خليل فى حاجة إلى امرأة مثلها ، تضع أنوثتها فى خدمة الذكر ، تتجلب له الأبناء ، ترعاهم فى غيابه . أسعد أيامها عندما بعث إليها فرج خليل بالمرسال . يلقى الكلمة ، ويمضى :

- موافق !..

فتحت ضلفتى النافذة المطلة على قهوة صبحى طعيمة ، للمرة الأولى منذ وفاة زوجها السابق . وضعت على رأسها إيشاربا أسود اللون ، وأخلت وجهها لابتسامه . تلقت رد الفعل ، وانسحبت إلى الداخل ..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

كانت بهية الطوانى تسرق له السجاج والبط من أمام النور . تنوس - بقدمين حافيتين - كومات الطين والأرض الموحلة ويقايا السباغ وقش الأرز . النجاجات تنبش الأرض ، وجماعات البط تنزل إلى التربة وتعود . اصطدمت فى فعلها بطشت فسيل أمام دار أم مشالى الداية ، فسقطت بطولها . ابيض رأسها ووجهها وملابسها بالصابون الوسخ . فوتت الأعين ماراته حتى لايتسلل ابن شفيقة بأذاه إلى نورهم :

قال آدم وزه :

قال فرج خليل لبهية الطوانى :

- حياتى ليست ملكى ..

قالت مهونة :

- ومن يملك حياته ؟..

فى لهجة باترة :

- تقيمين فى دارك .. وأقيم فى الخلاء...

أمر عددا من الرجال . راقبوا الطريق من فوق الأسطح ، وأعلى الشون .
ارتدى الرجال والشبان الجلابيب البيضاء ، وتعالى زغاريد النساء ، وظلت سحب
الدخان فوق أسطح النور ، تشى بروائح السلق والشواء والخبز الساخن ، ولطم
صوت بطة الغازية.

وليت له الجلة من لبن البجر
ولاعايز الجلة ولا لبن البجر
ولاعايز الجلة ولا لبن البجر
ولا عايز إلا إنت يا ضى الجمر
وليت له الجلة من لبن الجاموسة
ماعايز إلا إنت يا ضى الفانوس
وليت له الجلة من لبن الجمال
ماعايز الجلة ولا لبن الجمال
ماعايزا إلا إنت يا ضى الهلال

دخل المائون بيت بهية الطوانى . فى يده البقتر . أتى به شحاتة عز الرجال
من قرية طيوخ الأقلام القرية . وبعد أن أتم المائون عقد قرانهما . انصرف
الحاضرون ، وأغلق عليهما باب بيتهما . احتضن بيت بهية الطوانى العروسين ،
لكنه ظل ساكنا . توزع الفرع على بيوت السمارة . المناسبة غير مغلطة ، والزغاريد
والرقصات والأغنيات والنقود . كانت أعضاؤها متفتحة ، فحملت فى عناقه الأول
لها . عد عليها تسعة أشهر من زفافها ، حتى أنجبت..

ظلت أفراح الزفاف ثلاثين يوما كاملة . لم تقتصر على مكان بذاته ، وإنما
توزعت على بيوت السمارة وحولها . غاب عن البوليس أن الأيام الثلاثين كانت
لفرج خليل وبهية الحلوانى . زوج الرجال - فى العلن - أنفسهم وأبنائهم ، لكن
فرج خليل وبهية الحلوانى كانا عروسى الليالى المتوالية ..

ظل يدخل بيتها آخر الليل إلى الصباح ، ثم يمضى - محاملاً بحراستنا - إلى
حيث لا يعرف أحد ..

قال فرج خليل :

- هل أقام الناس كل هذه الاحتفالات لأنهم يحبوننى ، أو لأنهم يخشون

أذى؟ ..

قلت :

- لاسم الظن .. فأتت لم تؤذ أحداً فى السمارة غير العمدة ..

قال بشير النحاس :

- إنهم يعتزون بشبكتك إلى السمارة ، فكيف يخشونك ؟ ..

قال بشير النحاس :

اختفى فرج خليل عن السمارة - بعد إتمام الزواج - أياماً تبلغ العشرة . ثم

فاجأ بهية الحلوانى فى ليلة المولد النبوى . كانت السمارة مشغولة بالفرح

والأغنيات والطببخ وحلقات الذكر ..

أبنت بهية دهشتها وفرحها ، واقعها فحملت من فورها ، وانصرف قبل أن يؤذن

للفجر . دلفت - فى الصباح ، أمام باب البيت - طستاً كبيراً من الماء المغسول

بالصابون ذى الرائحة .

” قدم إلينا المبشرون حيث نقيم . أبلغوه بولادة زوجته وأنها ولدت ذكراً . نزع

أم مشالى العقد من رقبة بهية ، وفرطت حباته ، ورشّت الماء على وجهها ، واستبقت

الخلاص فى الحجرة حتى مضى ثلاثة أذانات ، فلا يتعرض المولود للشر أو

الحسد . وحمل فرج الخلاص بنفسه ، فالتقاء فى البحر ، ثم ألقاء - فى المرتين

التاليتين - للكلاب ، حتى تكون الأنثى ولودا كثنى كلب ..

قال فرج خليل :

- سأسميه خلاء ..

استعدت التسمية :

- خلاء ؟ ..

شرد بنظراته :

- حتى يتذكر الخلاء الذى قضى أبوه فيه معظم أيامه ..

قال سلامة حسبو :

- وما ننب الولد فى هذه التسمية ؟ ..

تلكأت الكلمات على شفثيه :

- اسمه خلاء، وانتهى الأمر ! .

شدت أم مشالى بالآ يدخل عليها أحد حديث الحلاقة، أو معه لحم، أو باننجان، أو امرأة عاقر، أو حائض، ربما جف صدر بهية فلا تجد لخلاء ما ترضعه. ظل فرج خارج الحجرة التى لزمتها بهية الطوانى، أسبوعاً كاملاً لا يراها ولا تراه، خوفاً من المشاهرة. أطالت الرضاعة ليكتسب الطفل مناعة وقوة. وثقت أن خلاء بخلق، وتركته بوساخته، وعلقت فى صدره حجاب، وفى رجليه خلاخيل.

قال سليمان عبدالواحد :

أكلت بهية الحلوانى مع ابن شفيقة لحم الضأن، وألبسها الحرير، وضاجعها على سرير ذى أعمدة نحاسية، وإن لم يختلف حالهما بعد الزواج. صارت هى الرجل، ولها الكلمة. تعيب عليه، وتشتمه، وتلعنه أمام صبياته . يخفض رأسه، ويسكت أو يتابعها بابتسامة معترة، كانت تسير مكشوفة الرأس. وكان يعرف الكثير من سلوكها، لكنه لم يسألها - يوماً - أين كانت، أو متى تعود . وكانت نار الفرن فى بيتها دوماً مطفاة، فهو يأتى لها بالطعام ساخناً من المنصورة، ويأتى بالفاكهة فى غير أوانها. تخفى دهشتها ولا تسأله من أين أتى بها، وكانت تحب الأقراط والعقود والمشغولات. وكان يبعث من يشتريها لها من المنصورة والزقازيق والقاهرة، ويشغلها السؤال: كم جمع من النقود ؟.

قال عبداللطيف صفرات:

قيل إنها تزوجته كى تنقى شره، لكنها لم تأئن له بأن يدخل حجرة نومها، ولا عرت له فحنيها. عرف حنوده، فلزمها. يظل فى قهوة طعيمة، تلقى إليه بأوامرها من النافذة. أفادها الزواج فى أن تحدثه ويحدثها. لاتجد فى ذلك غضاضة ولا عيباً. حملت أم مشالى تهديده، فأنزلت له ساقياها. لم يكن التوليد عمل أم مشالى الوحيد. كانت تعمل بما يأتى لها بالمال. عملت خادمة فى البيوت، وقوادة، ودلالة، وقارئة فتجان، وخاطبة، ومرابية، ومرشدة للبوايس. شديقتها من يملا يدها. تنسأه، وربما تتقلب عليه إذا لقيت السخاء من آخر..

قيل إنها لم تعرف والد ابنها، ولا إن كان ابن شفيقة، أم سلامة حسبو، أم واحداً من الرجال الذين فتحت لهم بيتها بإذنه، ينخلونه فى غيابه..

قال بشير النحاس :

المرءة الوحيدة التى خاطب فيها لسان بهية الطوانى لسانى، عندما تحدثت عن أسرتها فى بدوى، وعن جد لأمها اسمه عبدالله الطويل. تزوج من جدتها أعوام اختفائه فى القرية، ثم ألف القبض عليه، فغاب عن بدوى حتى جاء الناعى بنباً موته فى بلاد بعيدة..

غالبت ترديدى :

— ولماذا تركت أهلك؟ .

وهى تتنهد :

— قل لماذا تركنى أهلى ؟ .. أعطى أبى أذنه لزوجه حتى أصبحت حياتى فى

البيت مستحيلة ! .

قال شحاتة عز الرجال :

بنت بهية الحلوانى — منذ زواجها — ربة بيت، تعرف وأجباتها. تعد الطعام لفرج خليل، ولنا. تقذف الحب للججاج، تحلب الجاموسة، تنشر الغسيل، وتلمع.

أكلنا - لأول مرة، منذ أعوام طويلة - أكلًا بيتياً. صينية كبيرة من الصاج، عليها فطير بالقشدة وبيض مقلى ومظلل باننجان، وأرغفة ساخنة، وقطع من الجبن القديم، وبراد شاي، وخمسة أكواب نظيفة..

أهمل فرج خليل ما اعتناؤه، فلم يظهر الاستخفاف بآراء زوجته ، ولا تظاهر بعدم الإنصات إليها، ولا اكتفى بإلقاء الأوامر. من ناحيتها، لم تكن تناقشه، أو تشعره أنها توجهه في مسألة ، حتى لو اتخذ تصرفاً خاطئاً..

بعد شهرين من ولادة ابنه الوحيد، أمر بتسفيره خارج القرية، وخارج السنبلوين كلها، حتى لا يأخذه البوايس للضغط عليه..

الصورة خارج الإطار

قال بشير التحاس :

كنت ألحظ شرود فرج خليل، ونحن فى الأماكن البعيدة: فوق الجبال، وخلف
زراعات القصب والذرة، وفى الغرز التى تغيب عن أعين البوليس. كنت أشاركه
الشعور - الذى أثق أنه كان يعانيه - بالخوف والقلق وعدم الاطمئنان. التوجس
من صوت أو ايماءة أو حركة، الحرمان من الأمان بالحياة وسط الجماعة ،
وبالشوق إلى عياله..

كانت غيطان الذرة تحيط بنا من كل جانب، والهندوء سادر ، والسما صافية،
نقية النجوم، والقمر يتناقص اكتماله، وإن أراق ضوءاً فاتراً ، فتماوجت ملامح
الأشجار والنخيل وأبراج الحمام..

قلت :

- ماذا يشغلك يا معلم ؟..

قرب راحتيه من راكية نار بقوالح ذرة، نعد عليها الشاى، ثم مسح بهما على
وجهه. تهدج صوته بحزن :
- خلاه ! .

قال سلامة عبدالواحد:

أصابته - أثناء مطاردة - رصاصة فى ساقه. توكأ على عصا، فقلّ فى أعين
الناس. لم يعد حوله إلا القلة ممن ربطت الجرائم المتوالية بين مصيرهم ومصيره.
قيدهم الخوف من عقاب الجريمة. باتت أوامره غير نافذة. توقع وشاية الناس به،
يعد أن ذهب الخوف من نفوسهم، فكثر تنقله من مكان إلى آخر، ولم يعد يأمن إلى
أقرب أعوانه. عانى الريبة والشك ، فلم يعد ينام فى حضرة اثنين، حتى لا يتأمران
على قتله. ينام فى حضرة واحد فقط، ربما زوجته. ولم يعد يقضى يومين فى مكان
واحد، ولا يستقر فى نوم، ولا يعرف لنفسه بيتاً. إذا اشتاق لابنه، بعث أعوانه
يأتون به إليه. يجالسه، ويكلمه ، ويداعبه ، ويعطيه من أموال الناس. صورت له

نفسه المريضة أن سلامة حسبو - أقرب أعوانه - يخونه مع بهية الطواني. كان لا يأتين لغيره من بين صبياناه، بتدخين السجائر أمامه، ويدخل حجرة نومه، لطمه على وجهه - يوماً - لمناقشة تافهة. تحسس حسبو موضع اللطمة في صمت، وإن انتوى - في نفسه - قتله ..

قال الشيخ التهامي رزق :

صار القبض على ابن شفيقة قضيتي الشخصية. وضعتني جرائمه في بؤرة التحدي. ابن المرة: هل انتصر على؟ ..

تعددت حملاتنا على حقول النرة والقصب، والمسجد وأضرحة الأولياء، والأجران، والسواقي المهجورة. وزاد حصارنا لمداخل القرية، ومنافذها. جسنا داخل الحواري والأزقة، في الطرقات الموحلة، بين الدور الطينية المتداعية، والطاقات، والأبواب التي تادرأ ما تغلق. أقللنا في تجنيد بعض أعوانه. أجهده البحث: من هو؟ لما هذه اليأس، قرر أن يسلم نفسه ، بدلاً من أن يقتله أحد رجاله.

بدا في وقفته أول الطريق إلى السنبلاوين متخاذلاً، يرتدى جلباباً من السكرونة، ويدس قدميه في نعل مغربي ..

حرصت أن أتسلمه بنفسى . مد يديه بلا مقاومة . تثبيتهما وراء ظهره . وضعت فيهما الكلبشات . دفعته داخل عربة البوكس . أقلته إلى مبنى المديرية . همنى إذلاله . سهل أن أدع العساكر يضربونه ، حتى يصرخ بأنه امرأة ، لكنه سيخرج إلى الناس رجلاً ، يتناسى ما حدث ، أو ينكره . يعود إلى أنية خلق الله . حتي تلتصق الإهانة بوجهه ، أمرت بحلق شاربه . لاحظت التردد في أعين العساكر. أمسكت المقص . قصصت طرفي الشارب ، حتى أتيت عليه تماماً ..

ثانى يوم ، جابت العربية أنحاء القرية ، والقرى المجاورة ، تعلن وقوع ابن شفيقة فى يد البوايس . من يريد مشاهدته ، فإنه سيدفع إلى الوقوف خلف قضبان الزنزانة الانفرادية ، المطلة على الشارع الرئيسى .

قال عبد اللطيف صفرة :

قيل إن المرأة هى التى وشت به . دلت البكاشى عبد اللطيف النمياطى على موضع كان يقضى فيه لياليه ، قبل إلقاء القبض عليه . كانت قد لمحت بالطلاق ، بعد أن تحورات حمايته لها إلى بلطجة تطلب النقود والطعام ، فأرسلت إلى الأمور من يده على مكانه ..

قال شحاتة عز الرجال :

أتعبه الهروب من قرية إلى أخرى . ضايقته مهانة بهية الطوانى وخلاء . سحب البوايس المرأة وكل معارفه إلى البندر . قضوا أياما تعرضوا خلالها للإيذاء والتعذيب . لم يكن الاستدلال على مكانه هو المطلوب . قال لنا وهو ينكت بعصا فى يده رماداً متخلفاً عن النار التى أشعلناها فى التبن ، وسط الغيطان ، تطرد الناموس :

- تعبت ، وتؤلى ظروف المرأة والولد ..

اشترط - لكى يسلم نفسه - أن يستقبله بخيت أبو سحلى ، عضو مجلس النواب ، أمام نقطة مرور السمارة . يضحبه - فى سيارته - إلى مديرية المنصورة. يتعهد له ، فلا يؤذى فى عياله ، ولا فى نفسه . لا سجن انفرادى ، ولا تعذيب ، ولا شتائم ، ولا إهانات ..

هرول الرجل - غير مصدق - إلى العملاق الذى ألقى سلاحه . افتقد يده فى راحة يد فرج خليل الضخمة . لم يحاول أن يتبين ملامحه :

- تمنيت لو أن لى شهرتك يا فرج ..

قال بشير النحاس :

طالت أعوامه فى السجن . تشوشت - فى ذهنه - صورة العالم الخارجى .
أعلن تخوفه من أنه لن يستطيع فهم ما سيلقاه . انتظرناه على باب سجن
المنصورة . صحبناه إلى المركز . تابعنا خطوات الإفراج عنه ، ثم رافقناه إلى
السيارة . دخل السمارة تحيط به طلقات الرصاص والزقاريد والصيحات ..

تبدلت صورته بعد أن تقدمت به السن . الشيب الذى خط قوبه ، أضاف إليه
- بطوله البادى - مهابة . ظل يريق عينيه على التماعه ، وإن سكن فيهما حزن
غامض ، يسهل تبينه ، وظل كلامه فيما عاناه . لم تعد تهجر ياله صور السلاسل
والقيود ، والأقفال ، والزنازين ، المغلقة والحبس الانفرادى ، والظلام ، والسواد ، ورائحة
البول والبراز . الرائحة العطنة اقتصرت على السجن ، يتذكره إذا تشمها فى أى
مكان .

كان كلما مر أمام سجن المنصورة ، تطلع إلى النوافذ الصغيرة ذات القضبان
الحديدية ، يندن بموال ياسين :

سنتين فى السجن العالى سنتين فى الزنازين

ويا بهية وخبرينى على اللي جتل ياسين

ويطلق تنهيدة :

- السجن سجن ولو فى جنينة ..

- كلمتك فى السجن أقوى من كلمة المأمور ..

- يظل فى النهاية سجنأ ..

ويشرد بنظرات حزينة :

- كنت أغمض عيني وأفتحهما على صورة الولد .. أتمنى أن أنفع عمرى حتى

أراه ..

يضيف متصعباً :

- أيام .. الله لا يرجعها ! .

ويعلو صوته :

- قتلوا فرج خليل في السجن .

وتخرج الكلمات مبحوحة :

- أنا الآن شخص آخر لا يمت إلى القديم بصلة ..

نوافذ للرؤية

قال شحاتة عز الرجال :

رفض فرج خليل أن نعود إلى ماكننا فيه . قال :

- عانى الولد والمرأة مالا يتصوره مخلوق ..

قال بشير النحاس :

- نبعدهما عن السمارة ..

نطق وجهه بالدهشة :

- وهل تعجز الحكومة عن الوصول إليهما ؟ ..

ثم بلهجة تقطر حزنا :

- لم أعد أطيع أن أبتعد عنهما ..

قال سليمان عبد الواحد :

لزم بيت بهية الحلواني المظل على قهوة صبحى طعيمة . نثب نزعنا أنيابه ،
فلا يخافه أحد . حتى أعوانه تركوه وانشفوا بأيامهم . لم يطرق الدار سوى اثنين
أو ثلاثة من أفراد عصابته القديمة . أقلمهم البوكس الى المركز ، وحذروا من العودة
إلى دنياهم الأولى ..

قال عبد اللطيف صفراتة :

تعدلت رؤيتي له فى قهوة صبحى طعيمة ، وفى الزراعية ، وعلى الجسر . كان
فى حاله ، يأخذ من الجالسين معه ، ويعطى . لا يبدو أنه يختلف عنهم فى ملابس
ولاتصرفاته ولاطريقة كلامه . ورأيتة وهو فى طريقه إلى بيته ، قبل أن يؤذن
للعشاء ، ربما لأنه كان مراقبا ، فلا يملك السهر خارج الدار ..

قال البكباشي عبد اللطيف الدمياطي :

هجر الجريمة ، وإن لم يهجر المجرمين ، عرفت أنه لزم بيت بهية الحلواني
المظل على قهوة طعيمة ، يلجأ إليه البوليس والأهالى : من يريد العثور على أموال
ضائعة ، سرقة سلاح أو بهيمة ، رشوة مفتش الرى ، أو دلال المساحة ، التستر
على شاب تخلف عن التجنيد ..

قال عم طنخاوي :

روى فرج خليل أنه سمع هاتفا في الليل ، ظل يطارده على مدى أيام : أما أن لك أن تنقل عن غيك ؟ فانتوى التوبة ..

تبد فرج خليل حياة التنقل والجويان ، وأزم قرية ، لا يغادرها . أعلن الجميع أنه قد هجر حياة الجريمة ، وتبعه ثلاثة من أعوانه ، لم يعهوا يحملون السلاح ، ولا يثيرون الخوف في نفوس أهل القرية .

قال بشير النحاس :

روى أنه بدأ الصوفية بأمر من سيدي أحمد البدوي ، بإشارة من النبي صلى الله عليه وسلم .. مال إلى النسك والزهد والبروثة ، استغرق في اللذة والوجد وطلب القلوب والأفكار الصالحة ، والندم على مافات من التقصير ، لم يعد يستقر في مكان . يبدو منطويا على نفسه ، يأخذ منها ، ويعطي لها ، ولا يخاطب الناس ، ويترند على معظم مساجد المركز في يوم واحد . ربما غادر المسجد قبل أن تؤدي الصلاة ليؤديها في مسجد آخر ، يلزم جوار الأضرحة بعين ذاهلة ، ولزم - لفترة - إمام الجامع الأحمدي - لاقتباس أنوار العلوم الشرعية منه ..

أعرض عن محبة الدنيا وشهواتها ، والتلذذ بمطامعها وإلباسها ومناكحها ، أثر ما يبقى على ما يفنى ، ولم يعد أيامه ، واعتبر نفسه من الموتى ..

قال شحاتة عز الرجال :

أنصت إلى هاتف في أعماقه ، أنه لم يخلق لهذه الحياة ، أمره الهاتف أن يصبح مقامه تحت شجرة الجميز ، لا يتركه إلا لضرورة وأن يبني لنفسه كوخا يقيه فضول الناس ، وتقلبات الجو ..

ودع أصحابه ، واعتزل الناس ، في الكوخ القريب من الطريق الزراعي المفضى إلى السنبلارين ، انفراد بموضعه ، لا يزور أحدا ، ولا يأتى لأحد بزيارته ، ولا تابع له ولا صديق ، يتناول طعامه مما تبعث به إليه زوجته مع طفله ، يدفعون إليه الطعام

من وراء باب الكوخ المورب يأخذه ويغلق الباب . وكان إذا انطفأ قنديل الكوخ
لنفاد الزيت ، أشار إليه ، فانقد ..

جاهد نفسه .. عودها على الرياضات فى الزهد والتسك والسهر والذكر . خلا
إلى تأملات وتساييح ، والقرآن يتلوه ، والصلاة يؤديها فى مواقيتها ، بالفرض
والسنة ، يضيف إليها من اجتهاده ، وكان يلزم الصوم حتى عن الكلام ، ويقصر
أوقاته على أداء الصلاة ، وقراءة الأوراد ، والتهدج بأدعية تضىء له المكان من
حواله ، تحكمه النويات الغامضة ، يفارق العالم ، يظل منصرفا إلى الصلاة
والصوم وقراءة القرآن ، فلا يحدث أحدا . وكان القاصم من مسافة بعيدة ، يشم
رائحة بخور عطر تنتشر فى الجو .

خرج إلينا يعلمنا ماتعلم فى الخلوة ، تبعته وسلامة وبشير النحاس ، بينما ظل
أدم رزة وعبدده الجمل فى طريق الحرام . بنى أمام الكوخ مصطبة من الطوب
الأحمر والأسمنت ، طولها ثلاثة أمتار ، وعرضها متران . غطاها بكليم اشتراه -
بتقوده - من سوق السبلاوين ، أضاف إليها مساند من الكريتون المحشو بالقطن ،
للظهر ، والالتكاء عليها ، لم يكن له إيراد ولا ملك ولا وظيفة ، ولم يكن يقبل
المساعدات ، إنما هو ينفق مما يأتى به الغيب . تطول جلسائنا معه لساعات ،
يتحدث عن عبر الزمان ، روى لنا الكثير من الأحاديث والأخبار ، والغريب من
الحكايات والروايات ، أهمل ملاحظة بشير النحاس باختيار موضع آخر ، بدلا من
جانب الطريق ، فلا يضايقتنا غبار الأقدام العابرة .

كان - مثله فى ذلك مثل السيد البدوى - لا يطبق الحجرات المفلقة ، وإن أرجع
السبب إلى قضاء معظم حياته فى الخلوة ، وفعل فعل البدوى فى الاتصال بالكون
الفسيح ، يتأمل القمر وحركات النجوم ، ويستقبل الأتباع والمريدين .

أقبل الناس عليه ، وأحبوه ، وأقادوا من علمه . وردت عليه الوفود من القرى
القرية ، والبعيدة ، خلوت داخل حجرة منفصلة عن بقية الدار ، لها باب جانبي

يصلها بالطريق ، يلزمون الساحة الصغيرة أمام الباب ، فى صمت أو يتناقشون حتى يأتين لهم الشيخ بالدخول ، يسألونه الحاجات ، ويستمعون اليه فى أخبار الوقائع والغيوب ، اعتقدوا فيه ، وأنزلوه منزلة الأولياء. عونا بالانصات الى كلماته، ملاحظاتها ، وتفسيرها ، وتحديد المعنى الذى تقصده . لم يكن يرد على سائليه بكلمات محددة ، ولا واضحة ، إنما هى كلمات مدغمة أو محملة بكنائيات وتشبيهات واستعارات ، يعيدون نقلها مفهومة ، لما قال : خراف هذا العام ستقلت من الذئاب ، فسر عوض عبد العال قوله بأن محصول القطن سينجو من الودة ، وقال : عيني على كبير عائلة صفرائة ، ففسرت أم مشالى الداية قوله ، بأن الحاج عبيد كبير عائلة صفرائة سينتقل الى رحاب الله . وقال : إن السماء ستمطر على السمارة صيفا ، فقال الشيخ التهامى رزق إن فيضان السنة سيكون وفيرا ، وتيقن الناس من صدق نبؤاته حين تحققت تفسيراتها ..

قال صبحى طعيمة :

لم يلبس ثوب الدراويش ، ويخرج الى الناس بالصورة التى فاجأهم بها ، إلا بعد أن زالت دنياه، وتحول الكثير من قطاع الطرق ، والخارجين على القانون ، على يدى ابن شفيقة الى مريدين وأتباع ، بعضهم صار من السالكين ، يتبعونه أينما سار وحل ..

مع أنه لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، فإنه فاجأ حتى أقرب أعوانه بحفظه لسور القرآن الكريم ، وأحاديث الرسول ، وكرامات الأولياء ومكاشفاتهم، والرقي، والتعاويذ ، والنفاثات فى العقد ، وكان يحط على الشجرة نسر كبير ، يجفل من طيرانه مريدو الشيخ ، لكن الشيخ كان يحاشه بلغته .

شهدت له بالولاية والكرامة ، لما شاهده منه من ذلك ، واعتقدت فيه ، وعلمت حقيقته ، وما انطوت عليه سريره لله تعالى.

قال شعاعة عز الرجال :

لم يكن يخرج فى ليلته إلا بعد أن يطمئن الى أداء الرجال للفرائض والسنن ، ولا يتناول طعامه إلا بعد أن يصرخ الجوع فى بطنه ، ولا ينام إلا عندما يقهره التعب ، ويلوذ بالصمت ، فلا يتكلم إلا عند الضرورة ومفرداته الحساب والعقاب ، والجنة والنار ، وضيق القبر واتساعه ، وكان دائم التردد لأسماء الله الحسنى ، التسعة والتسعين .

كلنا نحترم شروده وسرحاته ، نصمت حتى يعود الينا . يقول إنه كان يطوف - فى مجلسه - بالبيت الحرام - يدلل على رؤيته بأسماء معتمرين من أبناء القرى القريبة ، طافوا حول الكعبة فى اللحظة نفسها . تعرف - إذا سألنا - أنهم سافروا الى الأراضى الحجازية لأداء العمرة ، وكان يجوس بعينه فى دنيا غير الدنيا : عوالم مجهولة يسكنها من يعرفهم ، وإن لم يعرف لهم ملامح ولا تكوينات جسمية ، وكان يعرف الكثير من أسرار البيوت ، حتى الرجل الذى يضاجع امرأته بغير شرع الله ، كان يويخه - اذا قدم لمجلسه - ويطالبه بأن يرمى الله فى المرأة المسكينة .

كان الحال يعتريه ، فيعلو صوته بما لا يفهمه من حوله ، وإن خاطب بكلماته أنبياء ورسل وأولياء ، وقد شاهده سلامة حسبو يخاطب الحيوان ، يشكو له همه ، يطلب عونه ، يسأله فيما غمض عنه ، يعطى انتباهه لأصوات الحيوان بما يشى بتعرفه اليها . وكان يحدثنا عن رؤيته لاسم الله مكتوباً بالنور ، يملأ ما بين السماء والأرض .

قال سلامة عبد الواحد :

لم يعد الناس يدفعون له الاتاوات ، يعتذرون بالظروف الصعبة ، تضاعلت صورته فى الأعين ، غابت المكانة القديمة ، فهو مثل الأرض التى تحيا على الأسمدة العضوية والمبيدات .

توهم أتباعه أن أمالي السمارة نسوا ما كان فى الزمن القديم ، تحدثوا عن ابن شفيقة بما يجعله وليا ، أو قديسا ، أو ملاكا منزلا من السماء ، روجوا له ، فصار قادرا بالكرامات والمشية النافذة بزعموا له من الأسرار ما يخالف القرآن والسنة ، مالا يوجد فى نصوص الشرع ، أضفوا عليه كل ما هو خارق وغير مألوف ، نسبوا اليه من المعجزات ما يجعله كالأنبياء ، أكدوا أن الله أعطاه لفظ «كن» فهو يلغظه ليتحقق ما يريد .

كور على رأسه عمامة كبيرة ، وأمسك فى يده سيفا ، وادعى الولاية ، فهو يطرد الشياطين ، ويفك السحر ، وعقد البنات ، ويروى عن إمامه بتكررة داود ، ويتنبأ بما فى بطون الامهات ، ويصنع الوصفات ، ويدعو بالخلف الصالح ، ويمنع الشر ، ويشهر ، ويربط ، ويعالج حالات الصد والسحر ، ويكشف أحوال الموتى والغائبين ، ويسيطر على الحيوان والنبات والجماد ، ويرد القدر ، ويحقق الشفاعة ، ويتصرف فى الكون بالهمة ، ولا يتأذى بلسع النيران .

أكد سلامة حسبو رؤية ابن شفيقة يعبر ترعة البوهية الى الضفة المقابلة ، ماشيا على الماء ، وطار فى الهواء - ذات ليلة - ليؤذن لصلاة الظهر ، بعد أن ظل مسجد القرية مغلقا لمرض مفاجئ ، ألزم الشيخ التهامى رزق بيته ، ولم يجد من يحمل المفتاح الى المسجد .

لم يعد إلا أن يكسوه الله الريش ، ويلبسه النور ، ويقطع عنه لذة الطعام والشراب ، فيصبح ملكا أرضيا .

قال بشير النحاس :

هل أحبه الناس كراهية فى السلطة ؟

ريما !

لكن الناس تزايدوا . وفنوا من القرى والمدن البعيدة ، عاملوه بما يستحق من المحبة والاحترام . أقاموا حلقات الذكر علانية ، دون أن تشغلهم تهديدات الأمور

والعمدة ، كان يقف مثل الضياء فى دايـر الناحية الذى تتفرع منه شوارع السمارة ، يطيل جلسته فى قهوة طعيمة ، وأمام دكان عم طلاخوى . يلـمـح - من بعيد - دكان القوالـج داخل غيـط - يمضى بتلقائية - نحوه ، يلقى السلام ، ويجلس ، يسمح عن المتعبين عرقهم ، ويعظهم ، ويمضى . الرائحة الذكية تسبقه ، وتحيط به ، الناس يتبركون بمصافحته يصرون على تقبيل يده .

قال الشيخ التهامى رزق :

الصوفى كالارض ، يطرح عليه كل قبيح ، ولا يخرج منه إلا كل مبيع ..
انتشر نكره فى قرى الدقهلية ، ورويت عنه الخوارق والكرامات ، صار من أهل الخطوة ، والناس فيه اعتقاد ، يلقى سجادة الصلاة على كتفه ، يفرشها فى أى مكان متى حل موعد الصلاة ، كان اذا ركب حصانه ، سار خلفه العشرات حاملين البنادق والشوم والعصى . يطوف القرى ، يعلم الناس أمر دينهم ، ويستمع الى شكاياتهم ، ويفصل مايشجر بينهم من خصومات . انتفع بعلمه ونصحه وارشاده ، أعداد ممن حابوا عن طريق الهداية والسداد . تاب على يده خلق كثير من المنسـر والحرامية وقطاع الطرق ، ولزموه مريدين ، ينفنون نصائحه وأوامره ونواهيه . لم يكن ابتلاع النار ولا أكل الزجاج أو الثعابين مسموحا به بين مريديه . من تأخذه الجلالة ، ويزدرد قطعة زجاج ، فإنه يطرد من حضرته حالا ، ولا يعود اليها .

قال صبحى طعيمة :

ذهب عقله فى السماء ، وان اختلط جسده بالناس فى حياتهم . يسير فى السوق ودابر الناحية والشوارع والزراعية ، ويجلس فى القهوة ، ويتردد على دكان عم طلاخوى . يقول كلمات غير مترابطة وبلا معنى ، وان اعتبرت من الكرامات .
أظهر من خوارق العادات ما أعلن ولايته . ولجأ إليه لصوص ورجال ليل ، تقل فى ماء ، ورش على وجوههم ، فتألفت بالتوبة ، ولزموا خدمته ، لايفارقونه إن جلس ،

أو طاف في القرى، وكان يختزن الكثير من الكرامات والمكاشفات مالم يبيع لأحد به، حتى أقرب أعوانه، سلامة حسبو، عجز عن تأويل أعماله..

قيل إنه وصل إلى حالة تسقط عنه الصلاة والصيام، وتجزئ له أن يفعل ما قد تدفعه إليه نفسه من الكبائر أو الصفات..

قال البكباشي عبد اللطيف الدماطي :

لم يعد من المفروض أن يهمني أمر ابن شفيقة ولا جرائمه. النقل المفاجئ إلى قنا وضعني في بؤرة التحدي. ابن المرة.. هل انتصر على؟.. تابعت حكايته، سألت، تقصيت. حل ابن شفيقة عصابته، وأعلن التوبة، لكنه ظل يتولى التخطيط للجرائم، وإن لم يشارك فيها، ويتستر، ويأوى، ويبيع، ويرد المسروقات لقاء حلوان. لم يعرف فرج خليل الصلاة في حياته، ولا أدى ركعاتها. وحين سئل: قال: إنه يفضل الصلاة في خفاء عن الناس، في الأماكن البعيدة. وقال للمتردين عليه إنه قد سقط عنه التكليف، فلا يسأله الله يوم القيامة، لا عن صلاة، ولا غسل من جنابة، ولا من احتلام، ولا عن زكاة، ولا عن حج، ولا عن جهاد، ولا عن صلة رحم، ولا مواساة، ولا عن شيء من فروض الدين..

لم يعرف الله في غير الحلف به، ليداري عن الناس جرائمه. أغلب سرقاته كانت من دافعي الزكاة، فأعجزهم عن دفعها، وبفع الثمن فقراء السمارة..

نشر أعوانه عن كراماته ومكاشفات. قيل إنه كان يسمع تسبيح الطير والحيوان والجماد، من صلاة العشاء إلى طلوع الفجر. وقيل إنه أبرأ المرضى، ومسح بيده على عيني ضرير يتردد على القرية للبيع، فأبصر في الحال. وقيل إنه أتى بلعابه من فمه. مص المريض أصابعه، فذهب عنه السقم والأثين. وقيل إنه ألقى على الأرض بحزمة فجل، تحولت - أمام العين - إلى ثعابين وحيات، وتفرقت. وقيل إنه أعاد إلى الحياة من كانوا على شفا الموت..

لم تنطل على الناس في السمارة شعوذة ابن شفيقة، ومحاولته لأن يصبح شيخ طريقة. ماضيه الملوث جره وراءه. اقتصر أتباعه ومريدوه على البلطجية

واللصوص والمحتالين وقطاع الطرق، لا يترددون فى دخول المسجد بالأحذية، أو يدخلون حفاة نون وضوء، ويخطئون فى آيات القرآن الكريم، ويغيب التجانس فى أدانهم للذكر. لم ينضم إليهم أحد من الغلبة والمسلمين..

فشل ابن شفيقة فى ادعاء الولاية، ولا أن يصبح مجنونا. الله يجذب مخلوقاته بعطفه.. لكن الأحداث المتوالية أفقدته عقله، فصار مجنونا، عانى - فى أخريات أيامه - اختلال العقل وسرساب الماء، فهو لا يفطن إلا إذا أحس بالبلل، أو نبهه الناس حوله..

قيل إنه قضى بقية أعوامه فاقدًا عقله، لا يعى الناس ولا الأشياء، ويخفى نفسه من مطارقات الأولاد. ألف الأهالى رؤيته فى حوارى السمارة، على أبواب النور، وأمام القهوة والفرز. له أحوال عجيبة ومناظر تستلفت الأنظار، فهو يحلق لحيته وشاربه وحاجبيه، فيبدو شائه الخلقة. ويرتدى أساور من زجاج، تصدر صوتا كلما أتى حركة، ويقتات بما يصادفه فى أرض الطريق نون أن يتأكد منه أو يتفحصه، ويهمل أسئلة الناس وكلامهم، ويمضى فى سبيله كئنه ينتمى إلى عالم آخر. ربما سحبه ولد من حبل الصوف الملتف حول رقبته، فيصدر من فيه صرخات متوالية، رفيعة، عالية، تدفع الولد إلى ترك الحبل، والفرار..

خير الزاد

أخ الشيخ التهامي رزق:

لقد المرء - كما تعلم - مزيج من الخير والشر. دائمة التغير، فلا تثبت على حال. وقد احترق فرج خليل الجريمة، ومارس الشر، لكنه كان ينزع إلى المروءة، وكانت نوازع الخير في نفسه حاضرة، وإن لا تظهر إلا عندما يجد الجد، روى الكثير من الحكايات عن الضروع التي امتلأت - بفضلها - باللبن، والأجران التي امتلأت بالحبوب، والمرضى الذين صحت وجوههم بالشفاء، وقيل إنه كان يمتلك خاصية الفعل الحسن، ويمتلك خاصية الفعل السيئ. يربط الرجال عن النساء، ويدخل العقول في هذيان، ويحرق الدار بون يد تشعل النار. وكان رأيي أن العلم لا يحتاج إلى قراءات في كتب. العلم الصحيح لدى، يضيء به الله داخل النفس، فينشغل به العقل، وتمثل النفس في الحضرة الإلهية..

قال بشير النحاس:

لولا أنني رأيت ما جرى، ما صدقته ولا رويته: قصف الذئب ثلاث بجاجات في قاعة الفرن بدار أم مشالي واختفى. تكررت فعلته في اليوم التالي في كبش بزيبة عائلة صفرائة. لما رأت سعادنة زوجة شيخ الخفر توفيق أبو اسماعيل، أن الساقين المغموستين في الدم، هما كل ما تبقى من رضيعها، خلفهما الذئب في بداية الطريق إلى الغيطان، غلت الصرخات، وصيحات التحذير، وارتفعت الأيدي بالشوم والمناقر والمناجل وعصى الجريد، وأغلقت الدور أبوابها وطاقاتها. لم يعد أحد يخرج للزرع، أو يسرح بالبهاثم، يجلس تحت أشجار اللبخ والجميز وأم الشعور. ولم تعد البنات يحملن الزلع والبلايص يقصن مياه المسقى. خفت الأرجل من الطريق، وتغطى الخوف في الغيطان، وعلى الجسر، وعلى القهوة وكان البقالة، وداخل المسجد..

فاجأنتني وقفة الذئب على باب الكوخ. تراجع - بعفوية - فتعثرت، وسقطت على ظهري، مضى الذئب - بخطوات متباطئة - إلى الداخل. كان الشيخ بمفرده،

فتأملت مما تأكدت أنه سيحدث. لم أدر كيف مضى الوقت، ولا ماذا حدث داخل الكوخ.. لكن الصمت السادر مشى بي إلى الكوخ، شهقت بالمفاجأة والخوف. كان الشيخ مشغولاً بقراءة أوراده، والنثب مقعياً إلى جانبه، مغمض العينين كأنه يصفى..

قال شحاته عز الرجال :

ظهر في ترعة البوهية حيوان غريب، ليس تمساحاً ولا يشبهه، وليس سمكة هائلة الحجم. لم يؤذ أحداً، لكنه كان يتحرك في الماء بمجرد اقتراب قدم من موضعه..

وقف فرج خليل على حافة الترعة. أشار بعصاه ناحية الحيوان الغريب. سبح الحيوان - وسط ذهول الجميع - إلى حيث يقف الشيخ. قرأ عليه الشيخ أدعية، فلحقه جمود الموت. ظل في موضعه ميتاً، وجرى عليه ما جرى على جثث الموتى من إنسان وحيوان..

قال بشير النحاس :

من ينكر الكرامة، إنما ينكر الحق، لأنها من صنعه، فلا ينكرها إلا نوى القلوب المحجوبة عن الله. مع أنه كان قليل التعلم، فإن أكابر الفقهاء والمتعلمين حضروا مجلسه. وامتحنوه بالمسائل الدقيقة، والفروع المشككة، فأجابهم. وقد أحسن الناس الاعتقاد في فرج خليل. آمنوا بصدق ولايته. ذاعت شهرته، وقصده الآلاف للتبرك به، والإفادة من عمله. اكتسب - في أيامه الأخيرة - شفافية ونورانية، وقدرة على شفاء الحالات المستعصية. وكان يمسح الرعس، ويتفل في الأنف، ويسقي المرضى ماء وضوئه، فيبرعون مما بهم. وكان يرقى المريض بتلاوة سورة الفاتحة، فيتعافى بإذن الله.

رأيته وهو يجرى على ظهر عاشور أبو اسماعيل، لما أصابه الشلل، ويقول:

- قم بإذن الله!..

وقام الرجل من فوره..

انكسرت له قوانين الوجود. يستطلع المستقبل، ويكشف عن الغيب، ويحيا في خيالات الكعبة وزمزم وقبر الرسول ومعنى والصفا والمروة والمقام. وروى أنه كان يرى نفسه في محفة، تطوف به أقطار الأرض. غاية الطواف بيت الله الحرام وقبر الرسول، وتعود، تبطن فوق جوامع أولياء الله وأضرحتهم. وثمة نور كان يتحدث عنه، ولا نراه، يتبعه، لا يستقر في موضعه، ويعتذر عن إلحاح الدعوات. يرفض حتى إشفاق مريديه. فإذا غاب النور في الأفق، عاد إلى نفسه، وإلينا..

عرف عنه القدرة على الإخبار بالغيب، وتجاوز حدود القوانين الطبيعية، والاتصال بعالم الأرواح، ورؤية الموتى، وسؤالهم عن الغائبات. ينادى على الميت الموصوف، فيقف بين يديه، وإن لم يره الجالسون. يسأله عما نادى عليه من أجله، لا يأنن له بالانصراف حتى يجيب بما يقنعه..

لم يعد يسأله أحد، إن كان يصلى. عرف أن الأولياء قد تسقط عنهم التكليف. يهلون الصلاة والصيام، ولا يقبلون فرائض الدين، ولا يتقيدون بشئ من نواهيه، ولا يخضعون لمحرماته..

في أواخر أيامه، كان الضوء ينبعث منه، إذا حل الظلام. يراه الجالسون في الفرز، والسائرون عبر الغيطان. ينتقل معه الضوء أينما ذهب. لا يغيب إلا إذا مشى في سوق القرية، يتبعه ضوءه. ولم يكن يقضى بأمر إلا أن يراه مكتوبا في السماء. وماسار من مكان إلى مكان إلا رافقته سحابة تظله.

كان يتطور، ويختفى عن الأعين. ربما كنا في مجلسه، فيختفى. نذكر أنه يأمُرنا بالانصراف. وربما كنا وحدنا، فنجدّه بيننا. على رأسه هالة نور تصحبه في كل مكان، يخرج من جيبه الخالي ما يطلبه المريدون..

لم يعد يحتاج إلينا، إلا أن ينادى على أحدنا - من موضعه - فيجيبه. يأمره : تعال، قيسافر إليه، أو يأمره: إفعل كذا ، فيفعله...

حتى لا يترك موضعه، خلق شعر رأسه، ولحيته، وحاجبيه، ورموش عينيه، يصعب أن يراه الناس - فيما عدا المريدين - على هذه الهيئة..
أزمننا - فيما بيننا وبين أنفسنا - أن نشيد له - إن حل الأجل - ضريحا يليق بمقامه وبركاته، نضع في صندوقا للنور ، فتم البركات..

قال شحاته عز الرجال :

علم نبأ وفاته، تحدث في الليل إلى أصوات هامسة، ثم طلب مصحفاً، ظل يتلو منه، إلى صلاة الفجر، فلما أدى الصلاة، بعث من ينادى على أصحابه ومريديه، جعلهم عن يمينه وشماله، وأعلمهم بساعة انتقاله، وأوصاهم بتفسيهم، وبعبادته، وقال: إن كل إرادة رهن إرادة الله، وأوصانا بأن يدفن في موضع الكوخ الذي أمضى به نهاية أيامه، على منخل القرية، بالقرب من شجرة جميز هائلة، كان يفضل الجلوس تحتها، وأن يبتنوا - فيما بعد - فوق قبره، مسجداً، أو زاوية، لا يخلطون بين قبره ومقابر القرية، المجتمعة في نهاية الطريق الترابي..

أمرنا بتلاوة القرآن بإخلاص.. وظل هو يقرأ سورة الإخلاص، ويعيد ما قرأ ..
زجر شحاته عز الرجال حين أشرق بالبكاء قال إن الموت حق وطالبهم بالسنة، فيدفن قبل أن يؤذن لتوقيتي صلاة، وتمدد، بحيث صارت رأسه ناحية القبلة، رأينا في دفنه ما يثير العجب، عندما دفن في مقبرته، وسوى التراب عليها، تنهأ من القبر صوت، هو صوته، يقول :

- ترفقوا بأنفسكم، فتلقوا مثل الهناعة التي أحيأها الآن !..

وظلت آيات القرآن تنهأ - بصوته - من الداخل ..

اقترح بشير النحاس إعادة فتح القبر، خشية أن يكون الرجل في حياته، رفضت ذلك حالاً، ما حدث ينتسب إلى المعجزات الكثيرة للشيخ الجليل..

قال بشير النحاس :

لما أحس نذو أجله هتف في الناس المحيطين بمجلسه، أعطوه انتباههم، فقال

كلاماً كثيراً، به عظام وعبر، خشع له السامعون، وانخرط بعضهم في البكاء
انصرف إلى الله تحوطه مهابة. اعتذر لمريديه ومن يريدون مرافقته. طلب أن يكون
سيره بمفرده. تابعناه من بعد، وهو يمضى في الطريق الترابي إلى الكوخ، على
أول الطريق إلى السنبلالوين. وكنا قد شعرنا باقترب الخريف من الظلام الذي
يحل مبكراً، واشتداد الضباب ساعات الصباح، وتضوع رائحة الغيطان بما
يختلف عن بقية أوقات السنة، وأحاديث أهل السمارة عن توقعات الحصاد ..

استوقفه زاهر النجار سأل - كما تحدث فيما بعد - في خصام بينه وبين
زوجته. أشار الولي - رحمه الله - بالصواب، ثم دخل الكوخ، فقبض من ليلته ..

قال صبحي طعيمة :

استعد فرج خليل للموت بالوصية، ودل زوجته على مال، دفنه تحت شجرة في
آخر الطريق المفضي إلى قرية طوخ الأتلام المجاورة. اعتزل في خلوة - منذ قدوم
رمضان إلى نهايته - يصوم ويصلي ويتعبد ويتهدج بأدعية. انفتحت له ليلة في
العشر الأواخر، طاعة القدر لبث دعائه بالستر، فعاش بقية حياته مستوراً . وكان
ينفق إنفاق من لا يخشى الفقر.

مات فرج خليل كما يموت الأولياء، على السجادة، عقب صلاة التراويح، في
رمضان همس يطلب مصحفاً شريفاً، احتضنه على صدره، وتلا آيات من القرآن
الكريم، ثم نطق بالشهادتين، أسند رأسه إلى السجادة، في الركعة الأخيرة، ثم لم
يرفعها.

لاحظ مريده طول السجدة، وصمته، وسكون أنفاسه. نالوا عليه، فلم يرد..
دفعه سلامة حسبو بيد مترفقة، فسقط على الأرض، وفي فمه كلمة : الله ..
أخذ الناس ماء غسله، وتبركوا به، فلم يصل إلى الأرض منه شيء. روى ما بدا
كالخوارق في حمله ودفنه ..

لم تشهد السمارة - في العام التالي لوفاته - حالة وفاة واحدة، بينما تعددت
الولادات بما لم تشهده القرية من قبل ..

قيل إنه عاود الظهور للعمدة مرات :

- لماذا تمنع إقامة ضريح ومقام لى ؟ ..

- هذه ليست وظيفتى ..

- أنت تحرض الإدارة على عدم الموافقة ..

- هذه سلطة المديرية، من هم فوق ..

ثم وهو يتصنع المسكنة :

- أنا مجرد عمدة ..

قال فرج فى عدم تصديق :

- إذا أصررت على موقفك، فلا تأمن على زراعتك أو بهائمك.. لا تأمن حتى

على بيتك وأولادك !.

تقاوس العمدة عن أداء ماطلبه ولى الله، أهمل الأمر، فلم يصارح به حتى أهل بيته، لكن الحمى التى أصابت أكبر أبنائه نافع، بوخت الأسطى عبدالشكور الحلاق..

وعندما ارتفعت حرارة الولد إلى الأربعين، واصطبغ وجهه بحمرة قانية، ومزق الأم بطنه، وامتلكه القي، والهنيان، نقله إلى مستشفى السنبلاوين الأميرى، وضعوا على رأسه كمادات تلج، وحقنوه بأنوية، وسقوه محاليل.. لكن الولد ظل على حالته، حتى علا صوت العمدة بالقول - وسط دهشة الجميع، وغياب فهمهم :
- سأنفذ وصيتك يا فرج !..

قال البكباشى عبداللطيف الدمياطي :

اطمأن ابن شقيقة إلى مستقبله بمبلغ كبير، وضعه فى آتية من الفخار. دفنها فى حائط بيت بهية الطوانى. لم يخبر بذلك صبيانه، ولا المرأة نفسها، وإن همس بموضع الآتية لما اشتد حصار البوايس، وأحس بنحو الأجل. أخبر زوجته وحدها. أشرفت بنفسها - بعد موته - على هدم الجدار، حتى ظهرت الآتية. صرقت الرجل الذى تولى الهدم، وخلت إلى الآتية، تعد ما فيها..

يمر الناس على قبره، فلا يلتفتون إليه، ولا يترحمون عليه، ولا يقرعون عليه
الفاطحة. صد الله عنه قلوب عباده، لإسرافه في أذاهم ..

قال سليمان عبدالواحد :

ظهر سلامة حسبو - بعد شهر أو نحوه - في مدخل القرية. قال إن ولياً قد
مات، ويدفن في الجانب الشرقي من القرية. صدقه الناس فدفعوا لإقامة مقصورة
ومقام على قبره . حدد لهم سلامة حسبو يوم مولده، فاحتفلوا به، وظلوا على موعد
الاحتفال، إلى الأيام الحالية ..

ادعى صبيانه صلاحه وتقواه، فلم يدفنه كما أمر الشرع، يبيد أثره بعد أوان
معلوم عند ربه. أقاموا المقصورة والمقام. ألبسوا البطولات والمعجزات والخوارق.
خلعوا عليه من الصفات والأفعال ما يصعب على البشر إثباته. أوتى مفاتيح العلوم
كلها، وعم مدده سائر الوجود. لا يعلن الناس ما في نفوسهم من عدم تصديق
يخشون الأذية، أو يستكينون إلى تكرار الكذب. ربما كان - بالفعل - ولياً، له
كرامات ..

اختلف صبيانه الأحداث والأفعال. نسبوها إليه، وجنوا من تصديق الناس خيراً
كثيراً عزوا إليه من الكرامات والمكاشفات والخوارق ما حمل الناس على الإيمان به،
وتقديم الهدايا والتنوير إليه، وغالوا في إقامة مولده، وإن رأيت بعيني صبيه شحاته
عز الرجال، وهو يفك حصره على جدار الضريح. يدرك كذب دعاوى الخوارق
والمعجزات ..

زادوا، فنسبوا إلى أنفسهم كرامات ومكاشفات، ليحققوا التواصل، يتحول
الولى الفرد إلى طريقة، تظل لهم المكانة التي صنعتها أكاذيبهم، وإن تهاومت
أسئلة: ماذا كان صاحب الضريح في زمانه؟ هل كان ولياً بالفعل؟ ..

مكاشفات الولی

قال الشيخ التهامي رزق :

بنى له مريدوه ضريحاً، أقيم فوقه زاوية صغيرة، صارت - فيما بعد - مسجداً. وأنشئت فوقه مئذنة وقبة، وتبرع أهل الخير، ففرشت بالسجاد والحصير، وكسى ضريحه بآيات قرآنية ورسوم.

ابتدعوا لزاره موسماً وعيداً، يقام كل عام. يقد إليه الناس - عند إقامته - من المدن والقرى البعيدة، ينصبون الخيام بالقرب منه، يقيمون أياماً تقصر أو تطول. وزاره ناس من المنصورة، مدفوعين بالأحاديث عن كراماته ومكاشفاته، يحملون الزاد والزواد، ويوقنون الشموع، ويقدمون النذور على العتبات، في المواسم، وفي الأيام العادية. وأوقفت عائلة النخيلي على خدمته قطعة أرض ملاصقة للمقام، وتبرع حامد الباز، تاجر الموبيليا بالمنصورة، بكسوة من الحرير الأحمر والنبياج الأخضر ونقوش الذهب ..

روى سلامة حسبو أن فرج خليل زاره في المنام، وقال له :

- احفر بالقرب من قبري، تجد ماء ..

لما حفر، ظهر الماء وانتفع به الناس، وأقيم له مصلى..

قال عم طلخاوى :

بلغ اعتقاد الناس به حد اليقين، أنه يملك التصرف في عالم الكون، بإعانة نور معرفة الحضرة. يدفع الشر، ويرد القدر، ويمتلك الشفاعة في الأولى والآخرة. وقيل إنه دفن في قبره، لكنه لم يموت. السيد البدوي جاب الأسرى، وخاطب مريديه وأتباعه من وراء القبر. ذلك ما فعله فرج خليل، لاتخفى عليه خافية من أحوال السمارة، وحياة أهلها. هو من المتصرفين في قبورهم. من كانت له حاجة، يقف أمام القبر يذكرها، فيقضيها له، ويقضى بما يرى أنه الصواب. يثيب المحسن، ويعاقب المخطئ، ويحمي الغلبة والمظلومين. ألف مريدوه وهم جلوس حول مقامه، أن جسمه يعظم حتى يملأ المكان. وكان يعلوه نور عظيم. يلبث دقائق، وقيل إنه ترصد - بهيئته - للكثير من العصاة، عند عودتهم إلى بيوتهم ليلاً، فويخهم على أفعالهم، وزوعهم. تاب على يديه لصوص ونشالون وهجامون وقطاع طرق وأبناء

ليل. أصبحوا من جملة مريديه ..

روى أنه لما أمر مفتش الرى بقطع شجرة الجميز التى تظلل قبره، تحولت الشجرة - باقتراب الرجال منها - إلى ثعبان ضخمة، يتلوى، فلانوا بالفرار .. وروى أنه لما بدأت الفؤوس عملها، لنقل فرج خليل من القبر الذى دفن فيه، إلى مقابر السمارة، سمع الجميع صوتاً يقول من داخل القبر :

- أخرجون رجلاً يقول ربي الله !؟

فتوقفت الأيدي، ورقض الرجال أن يستكملوا مابدءوا ..

قال بشير النحاس :

كنت مع شيخى لحظة وفاته. أخذت خاتمه من أصبعه، ولبسته. أزمعت أن أواصل سيرته . ألهج بذكر المحبوب، وأستغرق وقتى بالعبادات والأوراد والدعاء والصيام والصلاة ونوافل الطاعات. لا أقوم بذاتى، إنما قيامى بالله، فأتأ تحرك، وأنطلق عنه، وأنظر بنوره ..

أما لماذا اقترنت بهية الحلوانى من سلامة حسبو، فلأنه قال لها، وهو يرحب بدخول سلامة حسبو عليه :

- أعدى لزوجك عشاء ..

همست بالحيرة :

- لكك تناوات عشاءك ..

وهو يعتدل فى فراشه :

- أعدى العشاء لسلامة ..

قالت فى حيرتها :

- أنت قلت لزوجك ..

حدجها بنظرة أمرة :

- سينزوجك سلامة حسبو بعد موتى ..

فكان الأمر كما قال فرج خليل..

قال شحاته عز الرجال:

ساعت الملائكة من بنوا الضريح

لما أمر مفتش الرى بأن يزال ضريح الشيخ فرج خليل، توقفت الفؤوس فى الأيدي..

ولما أراد عمال الرى قطع الجميزة الهاثلة، المجاورة، علا صراخها، صراخ أدمى، فزع، ملتاح. وتدفق الدم من جزعها المقطوع.
تفرعت الجميزة، وشمل ظلها الكوخ والقبر والمقصورة، وكثرت ثمارها، وطرحت من البركة ما لم يتصوره أحد..

نعلم أن فرج خليل حى فى قبره، ياكل ، ويشرب، ويصوم، ويطير إلى الحج فى مكة، وتعرض عليه شكاوى الناس، فيقضى فيها ببالغ حكمته، ومع أنى صحوت على ما حدث، فليست أدرى إن كان ذلك فى صحو أو منام، طلبت من سيدى فرج أن يصحبني إلى حيث يذهب. حملنى بين يديه كريشة، طار بى إلى السموات العلا ، اجتاز سماء إلى سماء.

طالعتى بمعارض الجنة والنار، وما فيهما من طوائف ونعيم وعذاب وعبر يستعصى على الذهن تذكرها، وعلى اللسان رواية ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال بشير النحاس:

أفنى هائلة الحجم، لزمت ثقباً بالقرب من مقامه، لا تغادره إلا إذا أحست باعتزام أحد زوار الضريح الإساءة للولى الصالح، فهى تغادر موضعها ، تنفث السم فى وجه الرجل، فيموت حالاً.

وألـم بالبلاد صقيع، أثلـف المزروعات، فيما عدا السمارة. ظلت مزروعاتها على حالها، لم يمسهـا تلف.

وحين غمر الفيضان مزروعات السمارة، رآه الناس يخرج من قبره، ويمضى إلى البوذية، غطس فيها، فظل الماء يتناقص، حتى ساوى حافة التربة، لم يظهر فرج خليل، فعرف الناس أنه قد عاد إلى قبره.

بركات ولى الله سيدى فرج خليل، تحمى السمارة من كل بلاء.

قال صبحي طعيمة:

أقيمت حول الضريح بنايات، تبركاً وتيمناً بالمجاورة.. روى غالبية المتربدين على ضريحه، أن هاتفاً خاطبهم فى المنام: من أراد المدد، فليزر فرج خليل. قصده الناس من المدن البعيدة، والقرية، ومن القرى، خلق يبلغون الآلاف، ينفقون النور والأموال، يوقدون الشموع والقناديل، يقبلون الأعتاب، يضعون أيديهم على المقام، يتبركون بلمس الكسوة، يتواجدون، ويتصايحون، ويمرغون وجوههم على شباكه، يغرقون بأيديهم من الهواء المحيط به، يضعونه فى جيوبهم، يطلبون الشفاعة والبرء والنصفة والمندد.. إذا تحقق ما طلبوه، عادوا إلى الضريح بالزغاريد والدعوات والنذور.. صار المكان مزبجماً، فنقلت القهوة بالقرب منه..

قال عوض عبدالعال:

غابت حقيقة ذلك الثاوى فى قبره، على الحدود بين الدقهلية والشرقية: أهو بالفعل صاحب خطوة وكرامات؟.. قيل إنه لم يفعل شيئاً مما نسب به الناس إليه، لكنه سكت عن التأييد والنفى. ترك التصورات تسرح بلا مدى.. يضيفون، ويحذفون، ويخلفون الحكايات من أساسها.

أقام مريدوه على قبره مقصورة ومقاماً. أقاموا حوله سوراً له باب. زرعوا فى فناءه الورد والريحان والصبارة، رتبوا المداحين وأرياب الأشاير والمنشدين بذكر كراماته ومكاشفاته. سلطوا الضوء على الضريح، يعبقون الجو بالبخور، يدفعون بالخرق الخضراء.. من ستر الضريح.. إلى النسوة اللاتي يتبركن بها.. يتصورون شفاعها لليلة والعقم، وتحقيقها لرضاء الزوج، وكان الشيخ زهير..

خادم المقام - يتلقى ليلة الجمعة أجزاء من متعلقات المرضى، يقنمها إليه نوهم مشفوعة بمبالغ كبيرة أو صغيرة. يضع المتعلقات فوق الضريح حتى تنتهى صلاة الجمعة، يعيدها إلى أصحابها ليلبسها المرضى، ويأتى الشفاء بإذن الله، وبركة صاحب المقام.

رويت حكايات عن سطوح ضوء، فى بعض الليالى المعتمة، على مقربة من الضريح. يتضوع البخور، تتشكل أبخرة ، وتتداخل أنوار ووجوه وتكوينات. يخرج رجل يرتدى ثياباً بيضاء فى بيضاء.. يتمشى أمام الضريح، يتأمل المكان، يطرد ما لا يراه أحد، ويهتف: انصرف يا شيطان!
ثم يعود إلى القبر..

قال البكباشى عبد اللطيف الدمياطى :

عرفت فى عملى بالعديد من المراكز والقرى - أن القبة التى لا بد أن يكون تحتها شيخ، ربما كانت غير ذلك، لا تكاد تخلو مدينة أو قرية - مهما تضاملت مساحتها، أو قل سكانها - من ضريح ولى يؤمه الناس، يدفعون له النذور، يحتفلون بذكرى مولده، يقيمون الأذكار أمامه وحوله. فى عزية البرنسية ، التابعة لمديرية المنيا ، تهاوى - بتأثير القدم - ضريح ولى فى طرف المدينة - قلبنا فى موضع الضريح، فلم نعثر على شئ - آلاف الأضرحة فى بلادنا بلا ولى، أو أن صاحب المقام بلا ولاية.

يغيبني أن أهل السمارة لا يشغلون أنفسهم بحقيقة ذلك الشيخ المدفون فى الضريح، ولا عن الحياة التى انتهت بالقرب من شجرة جميز تفصل بين محافظتين، لم تمض على وفاته أعوام قليلة، فمعظم أهل القرية سمعوا عنه، أو شاهنوه، أو خاطوه.

نسب إليه صبيانه - بعد وفاته - أنه تكلم وهو ميت.. صلى على نفسه وهو يغسل، وهم يصلون عليه، وهم يغيبونه فى قبره.

روح صبيانه أن فضيلته الأولى، كرامته التي استحق بها الولاية، هي انتصاره على عساكر الإنجليز، وعساكر الحكومة ، ولم يكن ذلك صحيحاً، ظل ابن شفيقة - إلى يوم مماته - يتحاشى الدخول في معركة مع السلطة. قصر أذاه على الأهل. يسرق أموالهم ، يتمر مزروعاتهم ، يسمم بهائمهم، يفرض عليهم الإتاوات.

اجتمع على قبره كثير من أبناء السامرة، والقرى المجاورة. بمرور الأعوام ، أتى أبناء القرى البعيدة أيضاً. ادعوا فيه الولاية. أقبلوا من كل الجهات، واختلط النساء بالرجال، وحدث فساد وإفساد. صار تدخل البوليس ضرورة لازمة.

قال صبحي طعيمة:

لأن زواجها من سلامة حسبو وصية فرج خليل، لم ترفض بهية الطواني ولا تنمرت، اعتبرته أمراً يجب تنفيذه. لم ترفض لزواجها الراحل أمراً في حياته، فهل تفعل ذلك، وهي تعاني الحنين إلى أيامه؟..

لا رجل في قوة فرج خليل ولا نكائه ولا وسامته، لكن زواجها من سلامة حسبو وصية فرج خليل وإرأسته..

أنهله رفضها لحضنه. لم تعلن الرفض. بدا من همودها بين نراعيه. لا تستجيب ولا تتفعل ولا تقاوم. تتجلد لمعايشتها وحضنه. تكتم قرفها وخوفها.. لم تتصور أن رجلاً - بعد فرج خليل - يقاسمها السرير.

قال آدم وزه:

استولى سلامة حسبو على جسمها وأموالها، وما خلفه لها فرج خليل. لما همست بالسؤال ، فاجأها بصفحة أنهلتها:

- ربما كان الوضع مختلفاً أيام المرحوم.. أما الآن فالكلمة لي..

تذكرت أيام تضاؤله أمام فرج خليل، وتصعبت. يتحدث عن وفاته لذكرى
الراحل، ويبول على قبره، استبدل عصا من الأبنوس، موشاة الرأس العاجي
بالذهب، بفرع شجرة الجميز الذي اعتاد حمله بعد وفاة ابن شقيقه.

قف بلفة ثيابها من نافذة البيت، ثم جرها من السلام إلى الباب الخارجى،
وأغلقه خلفها.. وكانت ثمة نسوة - بثيابهن السود - على عتبات البيوت، يكتسن،
ويطعمن الطير، وينقين الأرز، ويفلين شعور البنات، ويخضن فى أحاديث لا
تنتهى.

طرقت الباب، تريد العودة إلى بيتها، لوى شعرها الطويل على يده. سحبها
على الأرض - انهال ببوز حذائه على جسمها الذى انكشف.
تابعنا ما حدث..

لم نقو - أمام الأصصاب المتفلته - على الاعتراض ، أو التدخل . كان يحمل فى
يده عصاه الأبنوسية، وعوج طرف اللبدة على حاجبه.

قال عوض عبدالعال :

قيل إن بهية الحلوانى تركت القرية، فلم تعد إليها. لم يعد يراها أحد. قيل
إنها عادت إلى الخدمة فى البيوت، عملت - بالتحديد - فى قصر أبو سحلى
عضو مجلس النواب. تذكر افرج خليل موقفه حين أصر أن يسلم له نفسه.. ثبت
موقفه بين مرشحي الأحزاب الأخرى.

قيل إن بهية الحلوانى ذابت فى الموالد، تبحث عما لا تقوله، ولا يعرفه أحد.
غازية، أو صاحبة نصبة شائى، أو مجنوبة، حتى خلا، لا أحد يدرى مصيره،
ولا ماذا جرى له.

قال عم طلخاوي :

شاهدها رجال من السمارة على أضرحة الأولياء فى مولد نسوق وطنطا
والاسكندرية والأقصر، النفوف والصاجات والحناجر المنشدة والمبتهلة والذاكرة.

انكرت معرفتهم ، أو انها لم تعرفهم بالفعل، كانت ذائبة فى الابتهالات والدعوات والمدد. وقيل إنه أصابها مس من الدروشة.

قال صبحى طعيمة:

لم يكن سلامة حسبو فى نكاء فرج خليل ولا جرأته ولا فتوته. قبض عليه عند رأس الجسر، واقتيد إلى مديرية الأمن بالمنصورة. دس عليه البوليس قطعة أفيون. أمضى لها ثلاث سنوات فى سجن المنصورة العمومى، عاد إلى السمارة، ففاجأه غياب صبياته. قبلوا معاملته لهم بالقهر، وإن ظل لفرج خليل- فى نفوسهم- المكانة الأقوى. رأيته بين الجالسين فى قهوة صبحى طعيمة، ناس من السمارة وقرى الدقهلية، شكلوا زحاماً داخل القهوة وخارجها ، والراوى يتحدث عن أبو زيد والزنانى وطى الزبيق وعنترة وأدهم..

قيل إن الموت فلجأه وهو بمفرده فى الدار. عصته الاستغاث ، فظلت عيناه مفتوحتين، وفمه فى هيئة الذى يصرخ. لم ينتبه أحد إلى موته إلا بعد أن فاحت الرائحة من الباب المغلق.

تبدلت الفصول، وحصدت مزروعات، واخضرت مزروعات، وجاء
الفيضان، وانحسر، واحتجز السد العالي مياه الفيضان لأعوام
الجذب، وردمت قنوات، وجرفت أراض زراعية، ومهدت طرق،
وشقت طرق أخرى، وأقيم جسر جديد، وشيدت بنايات من
الأسمنت المسلح، وقلت المصاطب، ودخلت الكهرباء والمياه
النقية، واختفت حنفية المياه العمومية والملايات، وتلاشى دخان
أفران البيوت عندما افتتح صبحى طعيمة فرناً يطل على دابر
الناحية، ولم تقتصر التلاجة والبوتاجاز والغسالة على دار العدة،
وانتشر الراديو الترانزستور، وعلت هوائيات التلفزيون، واستغنى
عن المحراث اليدوى والشادوف والطنبور.. حلت المعدات
الكهربائية بدلاً منها، وشهدت السمارة حالات زواج وطلاق،
وارتفع فى جنبات بيوتها صراخ المواليد الجدد، وصوت النساء
فى جنازات الراحطين، وماتت أم مشالى، وعانى الدايات - بعدها
- ذهاب الحوامل إلى الوحدة المجمع، وحلت المدرسة الابتدائية
إلى جانب الكتاب، وتوقفت باصات نقل الركاب على مدخل
السمارة من ناحية الطريق السريع، وسافر الشبان إلى الجامعة
والجندية والوظيفة، وركبوا الطائرة إلى خارج البلاد، وسافرت
اسر إلى المدن، وارتدى الجينز قلة من البنات فى الذهاب إلى
المدينة، بينما التزمت الغالبية بنصائح الأهل، فارتردين الحجاب

فور أن جاءهن خراط البنات، وغابت أيام سلامة حسبو، لم يعد يذكرها أحد. واستعاد الشيوخ ذكريات الأعوام البعيدة، الولد يتحدى صاحبه: يعنى عامل ابن شفيقة.. والشبان الذين لم يشهدوا الأحداث بأنفسهم، يروون تحذيرات الجدات: ناموا أحسن يجيلكوا ابن شفيقة، واحتفل أبناء القرية - والقرى المجاورة - فى موعد يعرفونه - بمولد العارف بالله فرج خليل.

لكل قرية وليها، وفرج خليل هو ولى قرية السمارة.
له ضريح ومقام وخليفة وتلامذة ومريدون، يؤمنون بكراماته، ويذكرون الله تعالى..

مولد فرج خليل هو المظهر الدينى للسمارة . موسم الزواج لباعتها ، وتجارها، وقهوة صبحى طعيمة التى تتحول - بقدرة قادر - إلى لوكاندة، أسرتها التراييزات والبطاطين ، اشتراها صبحى طعيمة فى تصفيات معسكرات الإنجليز بالقناة، ويجرى موسى عبدالشكور الحلاق، العشرات من عمليات الختان، فى كشك يحرص أن يكون قريباً من الضريح، يفد الأفراد والجماعات، فلا يقتصر الاحتفال على الرجال وحدهم، وجوه مألوفة وطائرة، تغمرها النشوة والوجد والحنين، تصل أيام المولد إلى أربعة أيام، تختتم بالليلة الكبيرة، تتزايد أعداد الوافدين والمقيمين، وتعلو الأهازيج ، وينشط الذكر، وترد الأنوار الإلهية.

أسطورة الولي والبوح

د . أحمد شمس الدين الحجاجي

لعل أهم ظاهرة تلفت الانتباه فى الرواية العربية الحديثة ، أنها تبحث عن شكل روائى جديد . وعدم استقرار الشكل الروائى أنى إلى حياة خصبة لعالم الرواية وإبداعها، وتمثل الروايات التى كتبها محمد جبريل محاولة للبحث عن شكل جديد للرواية، بدأت برواية «الأسوار» حتى روايته الأخيرة «بوح الأسرار» فالبحث عن شكل جديد للرواية مثل طموحا أساسيا له كروائى.

وقد قامت رواية «بوح الأسرار» على مستوى سردي متعدد ، فهى رواية متعددة الأصوات . لم يبن هذا التعدد على تغاير فى الراوى، وإنما أيضا حاول القاص أن يختفى من الرواية، فلا يكون موجودا فيها مشاركا أو مشاهدا لأحداثها لا بضمير المتكلم أو بضمير الغائب ، باستثناء المقدمة والخاتمة . فقد تحدد بوجه منذ البداية - بضمير المتكلم - بلثها رواية حصل عليها من رواة متعددين، ويعدها اختفى لتروى الشخصيات الأحداث التى عاشتها، أو سمعت بها، من وجهة نظرها، وبالطريقة التى تحاول أن تتبين فيها رؤيتها للأحداث . وعاد القاص فى نهاية الأحداث التى سردها الرواة ليختمها عن واقع القرية بعد أن تكاملت سيرة ولى الله العارف بالله فرج خليل فالرواية - منذ البداية - تحاول أن تقدم سيرة ولى من أولياء الله الصالحين، منذ لحظة ميلاده حتى وفاته.

تتغاير الأصوات وتتعدد بعدد رواة سيرة ولى الله فرج خليل، فهم ثلاثة عشر رجلا سيطرت الرواية على حركتهم، فهى تنقسم إلى قسمين رئيسيين: الأول ويبدو فيه الشكل الأساسى له بطلا للجماعة يصارع القوة الفاشمة للسلطة، والثانى تظهر فيه أسطورة البطل وهو يتحول من تائر قاطع للطريق إلى ولى من أولياء الله..

وفى القسم الأول من حياة البطل، يمكن تقسيم الرواية إلى ثلاثة أقسام: فئة تقف ضد البطل، وفئة تقف معه، والثالثة تقف موقفاً محايداً توازن بين الأحداث . وفى القسم الثانى من حياة البطل لا يكون هناك سوى رواية مع، ورواية ضد . أما القسم المحايد ، فقد تحول الراوى إلى صاحب موقف واضح من البطل فرج ، ففرج خليل إما أن يكون ولياً أولاً يكون فى نظر الرواية ، وليس هناك موقف ثالث . -
وحين تكون الرواية سيرة بطل ولى ، فمن الخير أن تتعدد الأصوات لتفيد النص، فتجعل الحركة تنمو ويحتدم الجدل حول حقيقة هذا البطل. كما أنها تفصل فصلاً حاداً بين المتعاطفين والمعايدين له، ويتم التحول من المعاداة إلى التعاطف والعكس، أيا كانت أسبابه.

ومنذ البداية تقف السلطة - ممثلة فى عمدة القرية ومأمور المركز - موقفاً مضاداً له، فقد بدأ الرواية بصوت العمدة الحاج سليمان عبد الواحد ليوضح مكان الحدث وهو قرية السمارة التى تنتمى عائلاتها إلى أصل واحد، ويذكر العمدة أن أباه بنى بيتها الأول. فى هذا السرد حدد العمدة مكانته فى القرية ومكانة أسرته الممثلة للصفوة. وفى المقابل تحدث عن الترحيلة، وعن فرج على أنه ابن واحد منها. ذكره بلقبه «ابن شفيقة»، وفى المجتمعات العربية كلها وكثير من المجتمعات الإنسانية، فإن أكبر إهانة يمكن أن توجه لفرد أن ينسب إلى أمه، فصاحب الصوت هنا - وهو العمدة - يحدد موقفه من بطل الرواية ، فهو الذى أطلق عليه اللقب «ابن شفيقة» وحدد له أصلاً وضيقاً لتصبح كفة الميزان غير متعادلة بين ابن الأصول «العمدة»، والمنتسب لأبيه وعائلات السمارة، وبين «فرج» المنتسب لأمه وللرجال المتخلفين من الترحيلة، فوالده خليل وأمّه شفيقة سارا ثلاثة أيام من قرية غير معلومة حتى وصلا قرية السمارة ، ومات الأب مخلفاً الصغير فرج.

وينتقل السرد بعد ذلك ليتم بصوت مأمور المركز عبد اللطيف النمياطى، وهو صوت حاد ومعاد لبطل الرواية ليعتقص منه. يسميه «ابن المرة» ويصف وجوده

كله بأن العهر تزوج «بالقوادة فأنجبا الضياع الكامل». وفي مقابل موقفه من فرج يرتفع بأسر القرية التي تنتمي إلى عائلات ثلاث تتصل ببعضها بصلات نسب، فتصبح القرية كالبنة الواحدة وكالقبيلة الواحدة. ومن هنا ينبع موقفه من فرج أو ابن شفيقة ، فهو إنسان بلا عائلة لايعرف له المأمور «أبا ولا أقارب له في القرية، ولا في القرى المجاورة» . ويتجه صوت العمدة وصوت المأمور في سرد الأحداث نحو إدانة فرج. فالسلطة هنا هي الصوت المعادي لفرج ، هي صوت واحد وإن تغير السارد، العمدة أو المأمور ، يضاف إليها صوت آخر من أصوات المقربين من الأغنياء، وهو صوت ناظر زراعة التخلي عوض عبد العال . فقد جعل من قصته كلها أكتوبية، إذ نسجت حوله حكايات من نسج الخيال ، ونسب إليه الكثير من الأعمال الخارقة . بينما يرى أن فرج خليل ولد ونشأ مثل كثيرين من أبناء قرى الدقهلية وقرى مصر، لم يلفت النظر بما يثير أو يشد الانتباه.

وفي معسكر المحايدين، ويروي المعلم صبحى طعيمة صاحب القهوة أنه ولد لحظة موت أمه ، وأن أباه تزوج بعد موتها ، فلم يستطع فرج أن يعيش مع امرأة أبيه. ويروي عم طلحوى البقال بالقرية أنه كان يعرف خليل زهران والد فرج، وأنه لم يعرف له أبا ولا أما ولا أهلا. قيل إنه فر من مطاردة ثور، وقبل إنه تورط في حادثة قتل فترك قدميه تسوحان في بلاد الله مع خلق الله.

ويذكر الشيخ التهامي رزق مائتون القرية وإمامها وخطيب مسجدتها بأنه ليست هناك رواية واحدة مؤكدة عن فرج خليل. ويشهد حديثه أن أبويه معروفان، وبيته مازال قائما في أطراف القرية . أنضله أبوه الكتاب، فظل فيه حتى أتم حفظ القرآن، وقيل إنه لم يتعلم فك الخط . وثمة رواية تذكر أنه أفاد من نزلاء السجون في التعليم حتى أجاد قراءة الصحف. وروى أن شيخا صوفيا تأمل الولد، وقال دون أن تكون له سابق معرفة به: سيكون لهذا الولد شأن عظيم.. روايات متعددة ومتناقضة يرويها الشيخ التهامي رزق، توضح أن موقفه لم يتحدد من فرج خليل، لكنه يوحى بأنه يمكن أن يتحول إلى صف فرج أو ضده، حسب تطور الأحداث.

وفى مقابل صوت الشيخ التهامى يظهر صوت محايد آخر هو صوت عبد اللطيف صفراته التاجر بالسنبلاوين . يقف مع المعادين له ، فهو يروى ما قيل بأنه بلا أويون تعرفهما القرية. لقيه خليل زهران فى لفاقة تحت شجرة على الطريق السريع بين المنصورة والزقازيق فتنبأه . لقد سلبت هذه الرواية فرج حق الانتساب لآبيه خليل، ولأمه شفيقة، وجعلت منه لقيطا ابن حرام.

أما أصوات المعسكر الثالث التى تقف مع فرج ، فهم متعددون. بشير النحاس الذى كان من رجاله، يرتفع صوته واقفا فى صف فرج، ليروى أنه كان سلطان الرجال وبطل الأعيان وفارس العصر والأوان. لم يفعل شيئا إلا لحكمة غابت عن العقول الغبية، وسرّ بنتائجها الغلبة من أبناء السمارة . ورواية بشير النحاس - وهو من أخلص أتباعه - تجعل كل ما يقال سلبا عن فرج، مجرد تهم من أعداء، فقد حدد شخصيات المسرورين بنتائج ميلاد فرج، وهم الغلبة، فى مقابل أحزان رجال العائلات فى قرية السمارة، وترتفع الأحداث التى يرويها عن فرج إلى درجة عليا، فأمه رأت فى منامها ليلة ولادته من همس فى أنفها بأنه سيكون فارس أوانه..

تتعاقب الأصوات السردية لتطور شخصية فرج من عامل عند العمدة إلى ثائر عليه... إلى قائد جماعة، فهو عند العمدة والمأمور فى رواياتهما لص أجير يتلذذ بالقتل، وعند أتباعه فارس مغوار. وقد روى بشير النحاس أن فرجا لم يسرق فقيرا ولم يقتل . رفض تنفيذ حملة ناجحة لأنه سمع بكاء طفل داخل البيت الذى تعب لدخوله. اقتصر سرقته على الأغنياء. السلاح فى أيدي أتباعه لمجرد التهويش ، فالسلاح للدفاع عن النفس، وليس لأتية الآخرين. ويؤكد شحاته عز الرجال أنه هاجم سلاحيك بيت العمدة، واستولى على ما به من أسلحة ليتحول رمز السلطة عند العمد إلى دليل مهانة.

ويستمر السرد بتعدد الأصوات متنقلا بين الرواة فى صراع بين صورة السلطة لفرج، وصورة أتباعه وأحبابه، فيتحول إلى مقابلة بين آراء ووجهات نظر

مختلفة. وكثيرا ما يكون الراوى متاكدا من حقيقة ما يقول، فيوهم بأن روايته تمثل الواقع الثابت ، بينما تكون الرواية المضادة مثبتة عكسها، ومؤكدة أنها تمثل الواقع. وسط هذه الأصوات تصبح شخصية فرج هى محور الحديث ومحور السرد، نون أن تظهر أو تبدى وجهة نظرها..

وتظهر المرأة بهية لتضيف تعميقا جديدا للسرد وتنوع الروايات، إذ يحدث تكرار فى نفس صورة السرد المتعدد الأصوات المبني على اختلاف الرؤى حولها، فبهية هى المرأة التى اختارها فرج لتكون زوجته وأم ابنه خلاء..

وكما بدأت الرواية بسرد الأصوات - بصوت العمدة الحاج سليمان عبدالواحد مضادة عن فرج عانت لتكرر عملية السرد المضاد بصوته عن بهية، فهو يقوم بالتعريف بها لتكون وجهة نظره عنها هى نفس وجهة نظره فى فرج. ويدعم وجهة نظره يذكر الأصوات المدعمة لها، فهى غجرية الأصل، هجرت أهلها واستقرت فى القرية. صرقت على حياتها من التردد على بيوت المستورين فى القرية والعمل فيها. وتذكر الرواية أنه قيل إنها عرفت الشبان منذ صغرها، وإنها كانت تختلى بهم فى الغيطان. وتعدد الرواية أحداث الفضائح التى كانت تقوم بها بهية فى القرية.

ولم تكن وجهة نظر البكباشى عبد اللطيف النعياطى المأمور مغايرة لرؤية الحاج سليمان، فالصوتان مقتربان فى وجهة النظر. فبهية - فى روايته - حفيت فى الموالد والأذكاء والمدن والقرى والأسواق، ترافق فرق العوالم ، تهز خصرها إلى جوار المغنى ، أو ترقص بمفردها. وكشفت الرواية عن قوة شخصيتها، فهى التى قررت أن تكسب فرج إلى صفها زوجا. فقد أدركت أنه ضمان لتجنب الأذى يلزمها رجل يعطيها اسمه ويحميها ويدافع عنها، وطبيعى أن يكون هذا الرجل هو فرج نفسه.

ويبرز صوت عبد اللطيف صفراته من معسكر المحايدين، ليذكر أنها تزوجته كى تتقى شره، وأشار إلى شرفها، فذكر أن ابن شفيقة قد غاظه تمسكها

بشرقها، فطلب منها أن تدفع فدية، أو أنها ستقاجأ بأحد صبيانه فوق فراشها. صوت صفراته يقف معها ضد فرج، وقد ارتفع بها عما يقوله العمدة والمأمور. ووقفت أصوات معسكر المدافعين عن فرج معها، فجعلت لها نسبا عريقا. وذكر بشير النحاس أن عائلتها لها عزوتها في مديريات الدقهلية وامتداداتها في مديريات قريية وبعيدة، وأنها ذكرت له أن جدّها - واسمه عبد الله النسيم - تزوج من جدتها أعوام اختفائه في القرية، ثم ألقى القبض عليه، ومات في بلاد بعيدة. وإذا كان العمدة قد نكر أن زوجها الأول كان عبد الله السحرتي شيخ الخفراء الراحل من البشر، فهي لم تخف طبعها، سيطرت عليه حتى مات، بينما تذكر رواية بشير النحاس أن زوجها الأول كان مدرسا بالمنصورة الثانوية، فاجأته أزمة قلبية أسلمته إلى القبر قبل أن يغترب أذنان. لم تنجب منه، ولكنها ظلت على ذكراه فأغلقت باب بيتها ونوافذه، لا تستقبل إلا نساء عائلتها وصديقاتها من نساء القرية.

ويذكر شحاته عز الرجال أنها كانت ترقب فرج، وهو - كما يعرفه أصحابه - لم ينظر إلى امرأة بشهوة، ولم تستوقفه امرأة مهما بلغت حماستها. دفعت إليه المرأة من يهمس في أذنه بأن يتقدم لها، فيتزوجها في الحال.

ويعد الزواج، استمر الخلاف في وجهات النظر، واختلافها حول فرج وزوجته. فالمأمور يرى أن بهية الحلواني كانت تسرق لزوجها اللجاج والبط من أمام النور. ويذكر العمدة ما يعني أن ليلة زفافها لم تشهد عرسا، بينما يذكر آدم وزة أن أفراح الزفاف استمرت ثلاثين يوما كاملة، لم تقتصر على مكان بذاته، وإنما توزعت على بيوت السمارة وحولها، غاب عن البوايس أن الأيام الثلاثين كانت لفرج خليل وبهية الحلواني. زوج الرجال أولادهم وبناتهم، لكن فرج خليل وبهية الحلواني كانا عروسا الليلي المتوالي.

لقد تحدد الموقف كاملا في القرية. أصبح العمدة والمأمور، ومعهما عوض عبد العال ناظر الزراعة معسكرا منفردا، ومن استطاع المأمور تجنيده من أعوانه،

بينما وقفت القرية معسكرا واحدا مع فرج خليل . فقد وضع أن غداء العمدة والمأمور لفرج يمثل موقفا شخصيا فقد ضاعت هيبتهما أمام الناس، وأصبحا يعيشان هزائم متوالية.

وحين حملت بهية وأنجبت ابن فرج خلا، لم تتوقف الحملة ضدتهما ويثت التهم حول بهية. فالمأمور يروى أن سلامة حصبو - أقرب أعوان فرج - يخونه معها، وأنه كان يعرف الكثير عن سلوكها، ولكنه لم يسألها أين كانت.

ويختتم القص في هذه المرحلة بتسليم فرج نفسه للبوابيس، فهو قد تغير منذ أن أنجب ابنه خلا، وأصبح يحلم بحياة الاستقرار لتبدأ مرحلة السرد الثالثة التي تمثل تحولات فرج من قاطع طريق تحاك حوله الأقاويل التي ترفعه إلى درجة الأبطال في مواجهة السلطة، أو تنزل به إلى درجة المجرمين الهاريين من وجه العدالة. وتطور حركة القص هذه لتبرز مرحلة تكون الأسطورة حول فرج.

ويكون سرد الأسطورة هنا مبنيا على محاولة تفسيرها عبر تشكيلها في مجتمع بعينه . فالرواية - بأصواتها - تسرد الأحداث التي أدت إلى جعل فرج أسطورة عند الجماعة الشعبية . والصوت السردى المتعدد يمثل السرد المؤدى للكشف عن محاولة تفسير لأسطورة الولي. فالراوي الأساسى المختفى وراء جميع الأصوات ، والذي ترك روايته يقومون بعملية السرد، كان راصدا لحركة السرد لتتم عملية وصف الأحداث للإيهام ببعده عنها، فهو يقومها من خلال شخصيات أخرى متعددة الرؤى ، ولها وجهة نظرها الخاصة بموقفها من الشخصية، لتقف هذه الرواية مفسرة للأسطورة.

ومن هنا فإنه من الخير توضيح ما أعنيه بالأسطورة ومواقف الروايات التي تناولاتها موضوعا لها لتتضح الرؤية في هذه الرواية..

ارتبطت كلمة أسطورة بكل ما هو خيالى وخارق العادة أى مقابل للواقع وما لا يصدق .. بينما هى عقيدة تمثل اعتقاد الإنسان فيما وراء الطبيعة ، وترتبط

بشعائر مقدسة . وهى عند معتققيها واقع لا يتسرب إليه الشك . وهى مثلها مثل الفلسفة مبنية ، على تصور الإنسان «للتكوين والوجود والمصير» .

اتخذت الروايات المتناولة للأسطورة مواقف متعددة تمثل نفس المواقف التى اتخذها دارسو الأسطورة، فلم تفسيرات شتى من أهمها التفسير التاريخي والتفسير الكوني والتفسير الاجتماعي.

ويعنى أصحاب التفسير التاريخي للأسطورة بأن الذين عاشوا فى عصور تبعد قليلا أو كثيرا عن عصر الأسطورة شعروا بأن لديهم دوافع بأن ينقلوا عن أسلافهم حقيقة وضعهم القبلى أو تاريخهم، فلم يستطيعوا أن يؤدوا ذلك بلغة مباشرة ، ولذلك لجأوا إلى الرمز . وهم بذلك مفرمون بسرد كيفية نشأة هذه الأساطير.

أما أصحاب التفسير الكوني فيرون الأسطورة حقيقة حدثت ذات يوم ، وطبيعى أن يفسرها علماء اللاهوت تفسيراً واقعياً بحسب منطق الأسطورة المقدسة.

ويرى أصحاب التفسير الاجتماعى للأسطورة أن لها طابعا اجتماعيا ، وأن وظيفتها تقوية التقاليد ومنحها قيمة عظيمة ومكانة كبيرة، وأنها تتاج مجتمع، ومعبرة عن هذا المجتمع ، فإن دراسة أسطورة ما كافية لأن تبرز صورة هذا المجتمع إبرازا كاملا من جميع النواحي ، فهى معبرة عن أشواقه وصراعاته وارتقاعاته ودلالاته أيضا .

ولم يخرج بعض كتاب الرواية الذين تناولوا الأسطورة عن هذه الدائرة، فهم قد اتخذوا أربعة مواقف:

الأول : رأى الأسطورة واقعاً . وتبدى ذلك فى رواية «الحرافيش» لنجيب محفوظ. فقد تشكلت فى الرواية رؤية كاملة للأسطورة من التكوين حتى المصير. تشكل فيه المقدس والنفس فى وحدة واحدة للوجود. ورسمت رواية «عرس الزين»

صورة الولي كممثل للمقدس فى حياة الجماعة، فى تكوينه وامتداده مقدسا، وبوره فى حياتها، ثم قداسة المكان الذى دفن فيه.

والثانى : يقف موقفا بين الدين والعلم كما فى قصة «قنديل أم هاشم» ليحيى حقى.

والثالث: يقف موقفا مضادا للأسطورة، فالأسطورة كذب تمثل جهل المجتمع، وهى تساهم فى تدميره. ويرز ذلك فى قصة «الطوق والأسورة» ليحيى الطاهر عبد الله. وقد بنيت المأساة فيها حول الإيمان بالمعتقدات الخاصة ببقايا التراث الفرعونى المتبقى فى معتقدات الجماعة. فالفتاة التى ذهبت لتطوف بتمثال الآلهة فى الحجرة المظلمة اغتصبت ليكون عذابها المؤدى لموتها، ثم استمرار الحياة بفتاة ولدت سفاحا. وفى قصته القصيرة «طاحونة الشيخ موسى» يسخر من الاعتقاد بالأولياء ، فالرأسمالية الانتهازية من أبناء المسلمين والمسيحيين يتحنون فى استخدام الشيخ موسى لوقف أسطورة الطاحونة التى لكى تبدأ فى العمل لأبد من تقديم طفل أضحى لها .

ويكتب غالب هلسا روايته «القديسة ميلانة» ليوضح كيف استخدمت الأسطورة لاستلاب الفقراء احتياجاتهم .

والرابع : يحاول أن يفسر الأسطورة تفسيرا عقلانياً ، ويبين نشأتها الاجتماعية . إنه يوظف الأسطورة فى نسج درامى . فيوسف إدريس يوضح كيف نشأت شجرة الصفصاف المقدسة القائمة إلى الآن على جانب الخليج ، وذلك فى روايته «الحرام» . فالشجرة مازالت مشهورة بين نساء تلك المنطقة كنواء مجرب وأكد لعلاج عدم الحمل . فقصة «الحرام» تحكى عن عالم الترحيلة وعذاباتة . فقد حملت عزيزة بعد أن اغتصبت وهى تحاول أن تحصل على بعض جنور البطاطا لتطعم أطفالها وزوجها المريض بسرطان المثانة ، وذهبت للعمل فى الترحيلة وهى تحمل فى بطنها جنيناً وشعوراً بالنذوب يحطمها . وولدت عزيزة طفلاً هو ابن

سفاح ، وهاجمتها حمى النفاس ، فأجهزت على الطفل ، ثم ماتت . كان موتها وعذاباتها قد جمعت الأمالى ليتعاطفوا مع عمال الترجيلة الذين كانوا يحتقرونهم . وقبل أن تموت عزيزة جرت حتى وصلت إلى نفس المكان الذى مات فيه ابنها . انطلقت من قمها صرخات متوالية ، وكأن الطلق اشتد عليها ، ثم تحسست بيدها حتى عثرت على عود الصفصاف الذى احترق نصفه ، والذى كان - ولا يزال - فى مكانه من الحافة ، وأطبقت عليه بأسنانها ، واتخذت هيئتها طابعاً جنونياً مذعوراً وهى تضغط على العود ، وتتشب أسنانها فيه . وظلت تضغط بتوحش ، وتضغط وهى تدمم بأثني محتبس كاسر والدم يسيل من فمها وأسنانها فيلوث العود . وعيناها جمرتان متوهجتان ، وشعرها منكوش كشعر الجان ، ويدها تعصران طين الخليج فتحيلانه إلى تراب جاف . وفجأة ، وكأن شيئاً طق فى داخلها ، تهاوت ممتدة على حافة الخليج لا حراك فيها . هذا الالم صنع أسطورة شجرة الصفصاف التى نعت من عود الصفصاف المحترق .

وقصة يوسف إدريس الثانية «سره الباتع» حاولت أن تفسر أسطورة الولى المتعدد القبر . فقد كان هذا التعدد تعبيراً عن التقدير الذى يقدمه الناس للرجل الذى قاتل الفرنسيين واستشهد دفاعاً عن أرضه ووطنه .

وتأتى هذه الرواية «بوح الأسرار» لتقف مع رواية «الحرام» وقصة «سره الباتع» فى محاولة تفسير الأسطورة . غير أن «بوح الأسرار» رسمت رؤية الجماعة لتكوين الأسطورة من خلال الأصوات المتعددة حتى لا تمثل موقفاً محدداً للسلارد الأساسى / (الكاتب) الذى اختفى وراء هذه الأصوات . فقد جعل من نفسه راوياً للروايات التى قيلت عن هذا الولى ، وأنه حصل عليها من رواة متعددين عاشوا فى زمن الولى ، تعرفوا عليه وتعاملوا معه . وأورد من رواياتهم ما اتفق منها وما اختلف . لم يحرص على انسجام الروايات بقدر حرصه على نقلها . خدم أسلوب تعدد الأصوات الرواية فى الكشف عن تعدد المواقف من الولى فرج خليل . وفى المرحلة الثالثة من حياته تغاير خط الأصوات ليسير مع محاولة

نمو الأسطورة ، أى أسطورة الولى من ناحية عند بعض الأصوات ، وبالضرورة إذا وجد المؤمنون بالأسطورة فلابد أن يوجد الرافضون أو الكافرون بها عند البعض الآخر . وهنا تحدد الأصوات التى تتحدث عن الولى والأصوات التى ترى فيه زيفاً .

والاختلاف بين شخصيات الرواة المقتنعين بالولى والرواة الذين يرفضونه ، يحدد الأسباب التى أسهمت في نمو هذه الصورة بقوة . فقد تعددت الروايات حول صورة الولى من الرجال الذين كانوا يقفون معه بعد أن عاد من السجن ، وتوقف عن السرقة .

وهنا بدأت أسطورة الولى تتحرك ، وتضع فرج فى دائرة القداسة . ولم تكن هذه الصورة مفاجئة ، ففى رواية بشير النحاس الأولى عن فرج ، وعن بطولته . بدأها بالتمهيد لقداسة فرج . فقد كان مولده ليلة السابع والعشرين من رمضان ، أى ليلة القدر المقدسة . وكانت أمه قد تجاوزت الستين ، وهو ما حير أهل السمارة ، فقد كان ميلاده يمثل معجزة . وصاحب مولده من الغرائب ، فقد سمعوا صوتاً ، وراوا فى السماء ما يشبه البرق دون أن يصاحب ذلك غيوم ، وهطل المطر فى حين كان الجو صحواً . وقيل إنه رفض أن يرضع من صدر أمه إلا بعد أن قامت للوضوء والصلاة ، لم يؤثر فى بنتها أنها عجوز ، ولا أنها كانت حديثة عهد بالولادة . ولما دعى الأسطى عبد الشكور الحلاق صباح يوم ولاته ، اكتشف أنه ولد مختوناً . هذه الرواية تحاول أن تلغى كل ما يمس الدنس الذى حاول أعداء فرج أن ينسبوه إليه ، ويلصقوه بوالدته ووالده . فهو قد ولد مقدساً ، ولقد روى أنه لم يكن فى طفولته كالأطفال فى مثل سنه ، لم يقبل على اللعب ولم يرتكب حماقة ولم يلجأ إلى الكذب للفرار من خطأ ارتكبه . ولم تكن المقدمات الأولى ليلاد فرج مقدمات كائن سيصبح قاطع طريق ، وإنما مقدمات كائن سيكون له طريق مع القداسة . وحين أخذ ينمو ويشب عن الطوق عاش حياته مظلوماً مهاناً . عمل عند

العمدة فلم يعطه أجرا ، يطعمه وينيمه فى الزريبة ، ويأمره بما لا قبل للبشر على تحمله . ولم يتوقف عن إهانته فى كبريائه ، فنسبه إلى أمه وسماه ابن شقيقة . وينكر بشير النحاس أن حياة فرج تغيرت منذ دعا فى ليلة القدر ، وقد انفتحت له طاقاتها . لم ينطق بكلمات محددة . اكتفى بالهتاف من قلبه : يارب . لى السميع العليم ما كان فرج خليل ينوي الدعاء به ، فاستجاب له وأنصفه من ظالمه . وتكتمل الصورة ، صورة فتوته ، حين ظهر له السيد البدوى فى المنام يرتدى عباءة خضراء يلف رأسه بعمامة يمتزج فيها اللونان الأبيض والأخضر ، ليكون ذلك إعلانا لقوته وفروسيته ، فلم يتجه فى البداية نحو الكون بينائه الأسطورى ، وإنما اتجه لدائرة الوجود المعيش . فالعالم مملوء بالظلم . وقد منحه الله قوة لا قبل للبشر بها ، فوضعها فى خدمة من يستحقونها من الغلبة . رفض أن يهب عون له لمن جعلوا أنفسهم فوق البشر . فى بابه تنحسر مياه الفيضان ، فيخضر وجه الأرض ، يجنى القمح ، ويحصد الذرة ، وتسهل السرقة . فرج خليل يعمل لصا ، سارقا ، يبدو فى الظاهر وكأن لا علاقة له بالقداسة . غير أن الروايات جعلته ما يمكن أن يسمى بالـص الشريف ، ويقترب فى عمله من نور الصعاليك فى المجتمع الجاهلى . يأخذ من الأغنياء لإعطاء الفقراء . إنه يد العدالة فى عالم مملوء بالظلم . وفى الوقت نفسه يكون أعدائه ، السلطة الفاشية الظالمة . يذكر المأمور أنه نبات شيطانى - وهذا هو رأى السلطة فيه - «وزع القروش من آلاف الجنيهاات التى سرقها على أهل قريته السماره فاستمالهم ، خدعهم بحيل يصعب تصديقها ، بينما تذكر روايات أخرى أن الاتهامات الظالمة بالسرقة حاصرت فرج ، فمارس السرقة فعلا . لقد حوله العمدة - بتهمة وحصاره له- إلى لص . واعترف فرج نفسه لشحانة عز الرجال أنه أحس بالحاجة فى أن يكون ما يتهمة به العمدة .

الظلم على فرج لم يتوقف حتى قبل أن يفعل ما يستحق العقاب . فقد لجأ العمدة إلى القوانين العرفية للحرب العالمية الثانية ، فطلب إدراج اسم فرج خليل

في كشف الخطرين على الأمن العام ، وازداد العمدة في غطرسته ، فنال من خصومه وخصوم عائلته بإبراجهم في قوائم الخطرين على الأمن العام. تستر على اللصوص والمجرمين والمطاريد وتجار المخدرات ، وسخر الفلاحين في أرضه.

برز فرج - في هذا الجو الظالم - ثائراً على العمدة وعلى الأوضاع التي يثبتها في قريته . وإذا كان العمدة يقوم بهذا الدور في القرية ، ويرى في فرج الثائر الذي يمكن أن يثير الأهالي عليه . ويتبع العمدة موقف المأمور ، ولأنه أعلى من العمدة درجات فإنه أيضاً يكون أشد منه قسوة على فرج ، فهو صاحب القرار وصاحب السلطة وصاحب القوة . يصنع العمدة خيوط الاكاذيب يغلها حول فرج، فتصبح أم فرج غازية ، ويصبح والده الفلاح قوادة ، ويسعى لامتلاك القراريط الثلاثة التي يملكها فرج . البنديقية الوحيدة التي وجدت داخل الحطب تصابر ومعها أمر اعتقال فرج . تبدأ وقفة فرج ضد الظلم والثورة عليه بكتابة . وطبيعى أن تقف القرية معه وتسانده ، وترى فيه متقدماً وحامياً . ومع أن المأمور يدرك أن كثيراً من الجرائم التي نسبت إليه لم يرتكبها ، فهو يذكر أنه ربما نسبت إليه جريمتان أو ثلاث في وقت واحد ، وفي أماكن متفرقة، فإنه لم يتوقف عن مطاردته وكراهيته.

لقد تحول العداء بين رجل البوليس والمجرم إلى عداء شخصى . وهنا ينعدم العدل فالمأمور يذكر أن القبض على ابن شقيقة - أي فرج - أصبح قضيته الشخصية . وضعته جرائمه في بؤرة التحدى . لقد انتصر عليه ، فجعل من الوصول إليه هدفا يرفض التخلي عن بلوغه . أرسل مئات العساكر إلى القرية ، واستخدم الضرب والتعذيب والحبس ليعترف له الأهالي بمكان فرج فلم يقلع . دعا شيخاً غريباً عن القرية ليؤم المصلين يوم الجمعة ويخطب فيهم للإرشاد عن مكان فرج خليل ، فرفضوا سماع الخطبة والصلاة وراءه .

وقفت الجماعة وراء فرج خليل فجعلوا منه بطلاً شعبياً من أبطالهم ، فهو بالنسبة لهم الأخ والابن والحبيب ، وهو الذى نعى الهم وأراد أن ينهى مظالم

العمدة والمأمور ، اتحد فعله بإعجابهم ووصلت ثروة الإعجاب بثروة الفعل ، فالعمدة نفسه يذكر أن المأمور قد أخفق فى مهمته ، وجعل منه أضحوكة . فاجأه بمفرده على الجسر ليلاً ، جرده من ثيابه واختفى ، سرق مسدسه الميرى من فوق مكتبه . بهذا الفعل الموجه ضد المأمور ، وبالتالي ضد السلطة ، تكامل موقف فرج البطل ، وتحديث مسيرته ، ولم يبق له ليتجه الحدث به إلى الكون «الأسطورة» سوى الزواج ، فهو ضرورة للولى لحفاظ نصف دينه وكان زواجه أول الطريق للبعد عن المغامرة فى مواجهة السلطة ، والتبدأ عملية التطهير ، فهو قد سلم نفسه لأنه تعب من المغامرة . ضايقت مهانة البوليس له ولولده وكل معارفه فقد صحبهم البوليس إلى البندر ، فقصوا أياماً تعرضوا خلالها للتعذيب والإيذاء . أتعبه ذلك ، فقرر أن يسلم نفسه دون أن تتكسر شوكرته أو أن يذل . فقد اشترط - لكى يسلم نفسه - أن يستقبله عضو مجلس النواب أمام نقطة مرور السمارة ، وأن يصحبه إلى مديرية المنصورة . يتعهد له فلا يؤذى فى عياله ولا فى نفسه دون سجن انفرادى ودون تعذيب ودون شتائم أو إهانات . وقضى مدة السجن ليعود إلى قرية السمارة تحيط به طلاقات الرصاص والزغاريد وصيحات الحب من أهل القرية .

انتهت - يعودة فرج من السجن - مرحلة البطل المدافع عن القرية الخارق فى قوته البدنية ، لتبدأ مرحلة البطل الأسطورى الخارق فى كرامته ، المالك لقوة روحية جاءت من المقدس الأعلى . فالفعل الدنيوى الخارق الذى فعله من أجل أهل القرية أصبح الآن يتبعه فعل روحى خارق من أجل أهل القرية أيضاً . وتنتقل لنا الأصوات المتعددة المحبة له صورة هذه الولاية . لقد بدأت بهتاف فى أعماقه من قوة كونية أنصت إليها ، وأمرته أن يصبح مقامه تحت شجرة الجميز . واختيار شجرة الجميز ليس مصادفة ، فهى شجرة مقدسة عند المصريين القدماء والمحبتين . إنها الشجرة المباركة صاحبة الظل الظليل ، المرتبطة بسبيل الماء المتروك تحتها للمسافر وعابر السبيل . لقد أمر ألا يترك مكانه إلا لضرورة ، وأن يبنى لنفسه كوخاً يقيه فضول الناس وتقلبات الجو .

يروى شحاته عز الرجال أنه اعتزل الناس في كوخ قريب من الطريق الزراعي. انفراد بموضعه ، لا يزور أحداً ولا يأتين لأحد بزيارته . يدفع إليه الطعام من وراء باب الكوخ . جاهد نفسه . عودها على الرياضات في الزهد والنسك والسهو. لزم الصوم حتى عن الكلام . خلا إلى تأملات وتسابيح ، وانصرف إلى الصلاة وقراءة القرآن . قطع فرج شوطاً في طريق الولاية ، فإن أول الطريق إليها هو العزلة حتى إنه وهو في عزلة كان إذا انطلقاً قنديل الكوخ لنفاذ الزيت أشار إليه فاتقد . يبدأ بعد العزلة الخروج إلى الناس ، فتأخذ يعلم ما تطعمه في الخارج . تبعه رجاله سلامة حسبو وشحاته عز الرجال ويشير النحاس ، وخرج عليه آدم وزه وعبداه الجمل ، ويبدو أن المأمور قد استقطبهما .

بنى أمام الكوخ مصطبة من الطوب الأحمر ، فهو لا يطبق الحجرات المخلقة مثله في ذلك مثل السيد النبوي . إذا فقد أقبل الناس عليه ، وأنزلوه منزلة الأولياء. توبة اللص الذي أنزله الناس منزلة البطولة ليست غريبة عن التراث الشعبي وليس من الصعب تصديقها ، والروايات المسروبة من أتباعه لم تذكر شيئاً عن حياته ضد الناس ، فهم لم يذكروا أنه ترك فرضاً وهو يحارب السلطة .

وفي التراث الشعبي كثير من الأولياء بدأوا حياتهم قطاع طرق ورجال عصابات ، ثم انتهوا إلى الولاية ، فإن هناك مواهب يمنحها الله لمن يشاء ومن يحسن ختامه . ولعل من أهم الشخصيات التي نسجت حولها الولاية بعد التوبة هو ابن عروس . فهناك الطريقة العروسية المنسوبة إليه . وفي الوقت نفسه ، هناك رواية تذكر أنه كان قاطع طريق ، وأنه قطع الطريق على عروس يوم زفافها . فلما رآه أهلها تتحوا عنه خوفاً منه ، فأتى إليها وسألها من أين ؟ وإلى أين ؟ وبينما تحدث ، لوى الجمل عنقه وأخذ ياكل في الزرع الأخضر . فقالت له العروس :

يا جمل العروس لا ترعى الندى

اليوم هنا والماتقى غدا .

كانت هذه نهاية العمل الإجرامى فى قطعه الطرق ليبدأ بعدها ابن عروس السير فى طريق التوبة . يأخذ الفتاة إلى أهلها ، ويتحول ابن عروس إلى قضية خالدة فى حياة الجماعة الشعبية . لذا لم يكن غريباً أن تتحدث الأصوات عن ولاية فرج . فما قيل داخل فى دائرة الاعتقاد الشعبى . فقد قيل إنه أنصت إلى هاتف فى أعماقه ، «أنه لم يخلق لهذه الحياة» . الهاتف فعل داخلى مرتبط بالإنسان ، ولكن شحاته يجعله صوتاً من الخارج يقتحم الأعماق . وطبيعى أن يكون هذا الهاتف من المقدس .

وهناك رواية أخرى متطورة فى حركة أحداثها ، ففى عدد من الجمل رسمت قصة يكشف داخلها عن بداية رحلة الولاية يرويها عم طلاخوى عن فرج خليل : أنه سمع هاتفاً فى الليل ظل يطارده على مدى أيام : أما أن لك أن تطلع عن غيك ؟ فانتوى التوبة . فليس هنا صوت من الأعماق ، ولكنه صوت واضح، إنه من الخارج صوت مسموع بالفعل وليس همساً .

تأخذ التكوينات الخاصة بصورة الولى فى الوضوح فى كثير من روايات المريد من الأمالى . فصباحى طعيمة يذكر أنه لم يلبس ثوب الدراويش ، وتحول الكثير من قطاع الطرق والخارجين على القانون على يديه إلى مريدين وأتباع . صار بعضهم من السالكين يتبعونه أينما سار ويكمل شحاته عز الرجال هذه الصورة بأنه لم يكن يخرج فى ليلته إلا بعد أن يطمئن إلى أداء الفرائض والسنن ، ولا ينام إلا عندما يقهره التعب .

وتزيد صورة الولى وضوحاً عند الجماعة الشعبية عندما يؤكد رجل من رجال الدين المحترمين منهم ، رؤيته له ولياً من أولياء الله ، والشيخ تهاى رزق إمام القرية أكد على حقيقة ولايته ، فهو يرى أن الصوفى - ويقصد به الولى فرج - كالأرض يطرح عنه كل قبيح ، ولا يخرج منه إلا كل مليح . ويبدأ الحديث عن الكرامات فهو قد صار من أهل الخطوة ، يلقي سجادة الصلاة على كتفه ،

يفرشها فى أى مكان متى حل موعد الصلاة . يقول صبحى طعيمة : لقد ذهب عقله فى السماء ، وإن اختلط جسده بالناس فى حياتهم .

تختلط الأقاويل وتكثر ، فالأصوات الساردة تتقارب رواياتها ، فهو يعلم الناس أمر دينهم ، ويستمع إلى شكاياتهم . فلقد أصبح الولي الذي يحل مشكلات الناس بالكرامة ، وليس بالقوة .

وإذا كانت أصوات المريدين قد قدمت حركة الأسطورة فى نموها حول الولي وتطورها ، لتتكمّل صورتها على أنها حقيقة حدثت فى عالمهم ، فإن رجال السلطة كان لهم موقف آخر . فليس من المعقول أن يتقبل مأمور المركز وأعوانه والعمدة ومن استقطبهم من الرجال هذه الأسطورة ، فهي فى نظرهم زيف كبير . لقد نقل المأمور إلى قنا ، ولكنه لم يترك أمر فرج ، ولا أسطوريته تنمو ، دون أن يحاول التدخل لتقسيرها كزيف تعيشه القرية . إنه مصر على محاربة الأسطورة . أخذ يتابع أخبار فرج ويستقصيها فهو يرى أنه قد حل عصابته ، وأعلن التوبة ، ولكنه ظل يتولى التخطيط للجرائم ، وإن لم يشارك فيها ، ويتستر ، ويؤوى المجرمين ، ويبيع ، ويرد المسروقات لقاء حلوان . لم يعرف فرج خليل - فى نظر المأمور - طوال حياته الصلاة ، ولا أدى ركعاتها . لم يعرف الله فى غير الحلف بالله ، ليدارى عن الناس جرائمه . أغلب سرقاته كانت من دافعى الزكاة فأعجزهم عن دفعها . وقد فسر سلامة عبد الواحد عمدة قرية السمارة ادعاء فرج الولاية بأن الناس لم تعد تدفع له الإتاوات . اعتذروا بالظروف الصعبة . تضاعفت صورته فى الأعين . غابت المكانة القديمة . توهم أتباعه أن أهالى السمارة نسوا ما كان فى الزمن القديم . تحدثوا عن ابن شفيقة بما يجطه وإيا أو قديساً أو ملاكاً منزلاً من السماء . روجوا له فصار قادراً بالكرامات .

وقد علا صوت المأمور والعمدة وهما يحاولان أن يفسرا أكايب فرج وأتباعه . ذكر المأمور أنه قال للمتريدين عليه إنه سقط عنه التكليف ، فلا يسأله الله يوم

القيامه ، لا عن صلاة ولا عن غسل من جنابة ولا من احتلام ، ولا عن زكاة ، ولا عن حج ، ولا عن جهاد ، ولا عن صلة رحم ، ولا مواساة ، ولا عن شيء من فروض الدين .

لم يكن المأمور يدرك أنه بوقفه ضد الأسطورة قد ساهم في تكوينها ، وأنه بنفيها قد أكدها . وموقف العمدية من فرج وأسطورته قد أكدها أيضاً ، فهو يذكر - وبالطبع رافضاً لأسطورة فرج - أن الناس قد نسبوا إليه من المعجزات ما يجعله كالأنبياء . أكدوا أن الله أعطاه لفظ «كن» فهو يلفظه ليحقق ما يريد : «كور على نفسه عمامة كبيرة ، وأمسك بيده سيفاً ، وادعى الولاية ، فهو يطرد الشياطين ، ويكف السحر ، وعقد البنات ، ويروي عن الإمامة بتذكرة داوود ، ويتنبأ بما في بطون الأمهات ، ويصنع الوصفات ، ويدعو بالخلف الصالح ، ويمنع الشر ، ويشهر ، ويريط ، ويعالج حالات الحسد ، والسحر ، ويكشف أحوال الموتى والغائبين ، ويسيطر على الحيوان والنبات والجماد ، ويرد القدر ، ويحقق الشفاعة ، ويتصرف في الكون بالهمة ، ولا يتأنى بلسع التنين .

لقد استسلم العمدية تماماً ، فهو يردد اعتقاد الناس في ابن شفيقة كما يسميه ، ولم يعد قادراً على أن يصنع شيئاً ليوقف الأسطورة . فقد رفعه الناس ، ولم يبق إلا أن يكسوه الله الريش ، ويلبسه النور ، ويقطع عنه لذة الطعام والشراب . فيصبح ملكاً أرضياً . وإذا كان المأمور يرى أنه فشل في ادعاء الولاية ولا أن يصبح مجنوباً ، فإن فرج أصبح عقيدة عند الجماعة ، وإلياً يمثل عمق أسطورة الولي وهم يرون كونها ، ولا يستطيعون إيقافها . وإذا كان المأمور والعمدة يريا أن هذه ادعاءات خاصة بفرج ، فهذه الادعاءات هي عند أصحابها حقيقة لا يمكن أن تنتزعها سلطة . وسواء أكانت أصوات المريدين تمثل الحقيقة التي يخالفها المأمور والعمدة ، وسواء أكانا مصيبين أم غير مصيبين فمما لا شك فيه أن الجماعة أمنت بولاية فرج وأسطورته . وحين ينكر المأمور أنه فشل في أن

يكون مجنوباً إنما يحاول أن يرفض إيمان الجماعة بهذا التعليق . فالعقيدة قد تآكلت عند الجماعة ، وأصبح لها شواهدا ، والجماعة الشعبية لها تفسيرها الخاص . فيما يذكر بشير النحاس أن قوانين الوجود قد انكسرت له . يستطلع المستقبل ، ويكشف عن الغيب ، ويحيا في خيالات الكعبة وزمزم وقبر النبي ومعنى والصفا والمروة والمقام . واختيار الولي هبة من الله ، والجماعة الشعبية تركز اعتقادها من قديم في هذه الهبة . فإذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجنى عليه اجتهاده ، والجذبة هبة إلهية ، قد تؤدي بصاحبها إلى أن يسقط عنه التكليف ، فالتهم التي توجه للولي بترك الفرائض ، وأحياناً الفعل المختلف للتوجه الاجتماعي هو جزء من بنية العقيدة حول الولي . اسقاط التكليف لا يكون إلا بعد تمام التكليف ، وما ذكره المأمور عن فرج يعود ليذكر بشير النحاس . لم يعد يسأله أحد إن كان يصلي . عرف أن الأولياء قد تسقط عنهم التكليف ، يهملون الصلاة والصيام ، ولا يؤدون فرائض الدين ، ولا يتقنون بشيء من نواهي ، ولا يخضعون لحرمانه .

تكاملت عقيدة الجماعة الشعبية حول الولي فرج، ولكي تتم استدارة الكون في بنية أسطورة الولي. لم يبق إلا المصير. لقد أدى الحياة بمعاناتها بوقفته مع الناس ضد السلطة، ثم تم التحول نحو المقدس، وبعدها يأتي الموت .

الموت موقف حياتي يمثل قدر الإنسان . كل إنسان يموت ، ولكن الموت بالنسبة للولي لا يمثل النهاية ، وإنما يمثل البداية ، فهو حياة أخرى جديدة يمارس فيها دوره في خدمة الجماعة الشعبية المتوجهة إليه . ويمثل عند الجماعة الشعبية الخلود الدائم للبطل الحامي الذي قدم لها الحياة في حياته ، ويقدم لها الحياة في مماته .

لا يموت الولي فجأة ، وإنما لابد أن يصحب موته علامات قد تفوق علامات ميلاده . يذكر شحاتة عز الرجال بأنه علم نبأ وفاته . تحدث في الليل إلى أصوات

هامسة . ثم طلب مصحفاً ظل يتلو منه إلى صلاة الفجر . فلما أدى الصلاة بعث من ينادى على أصحابه ومريديه . جعلهم عن يمينه وشماله ، وأعلنهم بساعة انتقاله ، وأوصاهم بأنفسهم وبعياله . وينكر بشير النحاس أنه لما أحس بنو أجله هتف في الناس المحيطين بمجلسه . أعطوه انتباههم ، فقال كلاماً كثيراً به عظات وعبر ، وخشع له السامعون ، وانخرط بعضهم في اليكاه .

أما لحظة الموت عند الولي فهي لحظة تجعل طعم الموت حلوا وتخفف من حديثه . فالجماعة الشعبية تجعل وفاته وفاة النفس المطمئنة التي عرفت ، فاستقرت ، فلا يخيفها المجهول في الموت . فصباحي طعيمة يذكر أنه مات كما يموت الأولياء على السجادة عقب صلاة التراويح في رمضان . همس يطلب مصحفاً شريفاً . احتضنه على صدره ، وتلا آيات من القرآن الكريم ، ثم نطق بالشهادتين . أسند رأسه على السجادة في الركعة الأخيرة ، ثم لم يرفعها . لاحظ مريدوه طول السجدة وصمته وسكون أنفاسه . نادوا عليه ، فلم يرد . دفعه سلامة حسبو بيد مترفقة ، فسقط على الأرض وفي فمه كلمة «الله» .

ويموت الولي تحرك الأسطورة نحو المكان ، فقبور الولي يحوى رجل الله المقدس . وهو بذلك قد تجلى على المكان ، فيتحول المكان إلى مقدس . إن الأماكن في هذا الوجود لا تتساوى في قيمتها ، فهناك المكان المقدس الذي تجلى عليه الإلهي والمكان الدنيوي الذي تمارس فيه الحياة ، والمكان الدنس الذي تجلى عليه الدنس (الشيطان) ، فالمكان المقدس متعدد . المسجد والكنيسة والمعبد بيوت الله المقدسة ، والأماكن التي تجلى فيها الله مكة والمدينة وبيت المقدس وطور سيناء ، وكل مكان تعتقد الجماعة الشعبية في التجلى الالهى عليه ، أو من تجلى الله عليه ، فهو مقدس ، والأماكن الدنسة هي كل مكان تجلى فيه إبليس وأتباعه يصبح دنسا : الخمارة وبيوت البغاء وما بنى بالحرام وأسس للشيطان .

لقد اختير لفرج المكان الذي سيصبح مقاما له ، إذ أمره هاتف في أعماقه أن يصبح مقامه تحت شجرة الجميزة ، وأن يبنى لنفسه كوخاً يقية فضول الناس

وتقلبات الجو . تحول هذا المكان - باستقرار خليل فيه - إلى مكان مختلف عن بقية الأماكن . فلقد وقف نثب مقترس على باب الكوخ ، ثم مضى إلى داخله ، وكان الشيخ مشغولا بقراءة أوراده ، بينما كان النثب مقعيا إلى جانبه مغمض العينين . الرجل المقدس تحول مكانه إلى مكان مقدس . يذكر بشير النحاس أن مريديه أزمعوا فيما بينهم أن يشيدوا له ضريحا يليق بمقامه وبركاته . ولم يحد أحد مكان مقامه ، ولكنه أوصاهم أن يدفن في موضع الكوخ الذى أمضى به نهاية أيامه . على مدخل القرية ، بالقرب من شجرة الجميز التى كان يفضل الجلوس تحتها ، وأن يبنوا فيما بعد فوق قبره ، مسجدا ، أو زاوية ، لا يخلطون بين قبره ومقابر القرية المجتمعة فى نهاية الطريق الترابى .

ويكتمل الاعتقاد بقداسة المكان بعد وفاة فرج ، مما رأى الناس من العجائب ساعة دفنه ، فيذكر شحاتة عز الرجال أنه بعد أن سوى التراب على مقبرته ، تنهأ من القبر صوت هو صوته ، يقول : ترفقوا بأنفسكم ، فتلقوا مثل الهناء التى أحيأها الآن ! وظلت آيات القرآن تتناهى بصوته من الداخل ، وقد رفض شحاتة اقتراح بشير النحاس إعادة فتح القبر ، فما حدث ينتسب للمعجزات الكثيرة للشيخ الجليل ، ويؤكد عم طلخاوى أنه خاطب مريديه وأتباعه من وراء القبر .

الأسطورة تمتد بعد وفاة الولى ، فروحه فاعلة فى الوجود . إنه مازال حيا يشارك الأولياء الأحياء فى محكمة العدل التى يقيمها القطب الأعظم . والقصص كثيرة فى أرجاء مصر حول فاعلية روح الولى . وليس الاهتمام بقبره وزيارته تمثل تصرفا عابثا من الجماعة الشعبية ، فهى تعتقد بأن روحه فاعلة ، وأنه يمارس طقوس العدل فى هذا الوجود . عندما يغيب العدل من حياة الأحياء فإن الموتى الأولياء مازالوا أحياء فى قبورهم ، قادرين على النفع والضرر ، نفع الأخيار ضد الأشرار وتحقيق العدل فى الوجود . ومن هنا كانت زيارة الولى فى قبره زيارة تمثل واجبا لا بد أن يؤدى ، والتقصير فى أدائه تقصير فى العقيدة .

وفى رواية «بوح الأسرار» تنتقل صورة هذا الاعتقاد بأصوات مختلفة من أصوات روايتها . فعم طلخاوى يروى أن اعتقاد الناس فى الشيخ فرج بلغ حد اليقين أنه يملك التصرف فى هيولى عالم الكون بإعانة نور معرفة الحضرة . يدفع الشر ، ويرد القدر ، ويمتلك الشفاعة فى الدنيا والآخرة . وقيل إنه دفن فى قبره ، ولكنه لم يموت . فى المجتمع الزراعى - ويمكن أن تؤخذ مصر مثالا لذلك - الحياة تبدأ .. الزرع يولد ويموت .. ثم يعود إلى الحياة .

الولى هنا ممثل لهذه الحياة ، فهو كما يولد يموت ، ثم يعود إلى الحياة ليمنح الخصب والحياة للناس . والشيخ فرج يمثل فى اعتقاد الناس صورة من صور هذه المعتقدات التى تجسد أسطورة لخصب ، فقد روى سلامة حسبو أن فرج خليل زاره فى المنام ، وقال له : احفر بالقرب من قبرى تجد ماء . ولا حفر ، ظهر الماء وانتفع به الناس ، وأقيم له مصلى . ويذكر بشير النحاس أنه حين غمر الفيضان مزروعات السمارة رآه الناس يخرج من قبره ، ويمضى إلى البوذية . غطس فيها ، قتل الماء يتناقص حتى ساوى حافة التربة . لم يظهر فرج خليل ، فعرف الناس أنه عاد إلى قبره . عند أى وقفة أمام أسطورة الولى فى مصر بتعديدها ، تظهر فيها عناصر كثيرة متشابهة ممتدة فى الزمان والمكان منذ أسطورة الخلق المرتبطة بالإله بتاح المتعلق به الإله أونوريس ، وربما قبل أن تأخذ هذه الأساطير شكلها المعروف لدينا ، فإن إله الخصب المقتول قاعل فى وجود مصر .

وتغيرت صورته ، فهو لم يعد إله الخصب فى معتقدات المصريين ، وإنما حل محله معتقد آخر . فبالتأكيد الاعتقاد فى إله الخصب شرك لا يقبله المسلم أو المسيحى . ولكن حل محله الاعتقاد فى الولى أو القديس ، وأصبحت هناك درجات فى هذه الولاية . فهناك الأولياء القوميون الذين تبين لهم مصر كلها بالحب والاعتقاد . وهناك أولياء محليون لا يخرج الاعتقاد بهم بعيدا عن دائرة القرية أو

القرى المحيطة بمقامه . وقد سجل صوت صبحى طعيمة صورة الاعتقاد بالشيخ فرج ، فقد أقيمت حول ضريحه بنايات تبركا وتيمنا بالمجاورة . روى غالبية المتريدين على ضريحه ، أن هاتفا خاطبهم فى المقام : من أراد المدد فليز فرج خليل ، ومن هنا ، فإن الناس قد قصدته من بلاد بعيدة ، يوقدون الشموع والقناديل يقبلون الاعتبار ، يضعون أيديهم على المقام ، يطلبون الشفاعة والبرء والنصفة والمدد . إذا تحقق ما طلبوه ، عانوا إلى الضريح بالزغاريد والدعوات والنور . صار المكان مزجما فنقلت القهوة بالقرب منه .

استقرت الأسطورة ، ولكن الاجماع عليها لم يتم . فإذا كان المؤمنون بأسطورة فرج قد نقلوا صورة عن ولايته ، فإن هناك الراضين للأسطورة أو الكافرين بها ، وهم هم أنفسهم الذين كانوا ضدها ساعة تخلقها .

فالبكباشى عبداللطيف النحياطى مأمور المركز رفض أسطورة الولى من أساسها وايس أسطورة فرج فقط، فهو يذكر أنه فى عزية البرنسية بمديرية المنيا تهاوى ضريح ولى فى طرف المدينة ، فقلبوا موضع الضريح فلم يعثروا على شئ وهو يقول إن آلاف الأضرحة فى بلادنا بلا ولى ، أو أن صاحب المقام بلا ولاية .

رؤية المأمور هى رؤية كافر بالولاية ، ولا علاقة لرؤيته بعقيدة الجماعة الشعبية، التى قد تعتقد فى مقام ولى . ونعرف مسبقا أن الولى لا علاقة له بهذا القبر ، فهى ترى أنه علم ، أى أنها تجعل للولى أكثر من قبر أو مقام . الإيمان يجعل للمعتقد معنى ، والكفر يجعل للمعتقد معنى آخر . فالمأمور يرى أن مقامه أصبح مقاما للفساد ، فقد اختلط النساء بالرجال ، وحدث فساد وإفساد ، وصار تبخل البوليس ضرورة لازمة .

واتهم العمدة سليمان عبدالواحد أعوانه بقتهم ادعوا صلاحه وتقواه ، فلم ينفنوه كما أمر الشرع ، وأنهم اختلقوا الأصوات والأفعال . نسبوها إليه ، وجنوا

من تصديق ذلك خيرا كثيرا ، ويذكر أنه رأى بعينه صبيه شحاتة عز الرجال وهو يفك حصره عند الضريح ، يدرك كذب دعاوى الخوارق والمعجزات .

ويتحدث عرض عبدالعال ناظر عزية النخيلي بالشك فى حقيقة ولاية فرج : أهو بالفعل صاحب كرامات ؟ فهو يتحدث عما يتصل بالولى بقوله : قيل إنه لم يفعل شيئا عما تسبه الناس إليه .

ولم يتوقف موقف الناس من فرج فى حياته ومماته ، وأيضا لم يتركوا الحديث عن زوجته وابنه كل حسب إيمانه بهذا الولى . فإن أفعى هائلة الحجم لزمّت ثوبا بالقرب من مقامه ، لا تغادره ، إلا إذا أحست باعتزام أحد زوار الضريح الإساءة للولى الصالح ، فهى تغادر موضعها تنفث السم فى وجه الرجل فيموت حالا .

الأسطورة تشكلت فى عقيدة المؤمنين والكافرين . وكانت الرواية تتعدد الأصوات فيها لتوضح التفسير لها . لم يتخذ الراوى المختفى الأساسى موقفا من الأسطورة ، إيمانه بها أو عدم إيمانه ، وإنما عدد الأصوات ليخرج هو من دائرة الأسطورة ، وليصبح مجرد راصد لها عند معتققيها والرافضين لها .

هذا مع العلم أن جميع هذه الأصوات مع كل اختلافاتها عبرت عن صوت واحد وهو صوت المؤلف . وقد حملت رؤاء ورؤيته لنمو الأسطورة فى العالم المعيش . وقد عبر من خلال هذه الأصوات عن مواقف متعارضة وأخرى متفقة مع رؤاه لئلا نجد صوتا واحدا للبطل عن نفسه فالبطل مختلف وراء الآخرين ووراء أصواتهم ورؤاهم منه فى ذلك مثل المؤلف نفسه . ولقد كانت هذه الأصوات معبرة عن موقف أصحابها وتجربتهم إزاء البطل وبدوا وكأنهم غير تابعين له فقد تركهم وكأنهم أحرار ليكون عالم الولى من خلال رؤاهم . ولقد حقق هذا التعدد استقلالية النص لتوضح صورة الولى الإنسانية والحياتية فى علاقتها بالناس . فقد عبرت هذه الأصوات عن نفسها وعن مواقف الجماعة الشعبية بأدلة كئنها الحقيقة وعلى

الرغم من تعارضها فقد تبنت الإيمان بالأسطورة وعدم الإيمان بها لتصحيح واقعا
فى حياة الجماعة .

وإذا كانت أسطورة فرج قد مرت بمراحل ثلاث ، مرحلة المظلوم ، ومرحلة
المدافع للظلم الواقع على الناس ، إلى مرحلة المقدس ، فإنه فى المراحل الثلاث
كان مطاردا ، مطاردا من عمدة ظالم . ثم من قوة الإدارة المتحركة فى الجماعة .
ثم محاولة هذه القوة مطاردة أسطوره وحتى بعد موته ، فإن استخدام تعدد
الأصوات جعل الأصوات المطاردة خافتة لترتفع الأصوات الواقفة مع فرج ساعة
تكون أسطوره .

إن الأسطورة هنا تمثل الواقع الاجتماعى للجماعة .

رقم الإيداع : ٢٠٠٠ / ٨٠٩٧

I.S.B.N

977 - 07 - 0898 - 4

هذه الرواية

ما أجمل القصص التي تمزج بين الواقع والاسطورة .

ورواية «بوح الاسرار» تقوم بهذا المزج حتى أن القارئ لا يستطيع الفصل بينهما بسهولة. انها رواية تقوم على تعدد الاصوات، رغم أن المؤلف حاول الاختفاء من وقائع الأحداث، فالأصوات تتعدد بعدد رواة سيرة ولي الله فرج خليل، حيث يقوم ثلاثة عشر رجلاً برؤيته كل حسب منظوره.

هذا البطل الذي يروي الرواية عنه من خلال مثلث متناقض : معه - ضده - حياد .. أما الرواية فانه يتوصل إلى حقيقة مهمة : إن البطل إما أن يكون ولياً أو لا يكون.. ترى كيف سيرى القارئ هذه الشخصية؟..

مع .. ضد .. محايد ؟
في الرواية الاجابة.



محمد جبريل

روائي من مواليد الاسكندرية ١٩٣٨/٢/١٧ ، عمل بالصحافة منذ عام ١٩٦٠ ، يكتب الرواية والمقال، والقصة القصيرة، حصل على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عام ١٩٧٥ عن كتابه «مصر في قصص كتابها المعاصرين». من رواياته : «الاسوار» ، «قاضى البهار ينزل البحر» ، «قلعة الجبل» ، «اعترافات سيد القرية» «رباعية بحري». ومن مجموعاته «تلك اللحظة» «سوق العيد» ومن أعماله الاخرى «نجيب محفوظ . صداقة جيلين» ، «مصر المكان» ترجمت بعض اعماله إلى لغات أوروبية واسيوية . ونوقشت أعماله في كتب ورسائل جامعية عديدة.

عائلة روايات الهلال

● اذا كنت من هواة قراءة الابداع
الراقي عريباً وعالمياً ، فشارك معنا عائلتنا
الابداعية «عائلة روايات الهلال».

● احرص على اقتناء نسختك الشهرية ،
أو احرص على الاشتراك فيها تصلك بالبريد
المضمون الى عنوانك

●● عاماً من الابداع المثالى

● تم اختيار أعمالنا لتكون أفضل
الاصدارات للسنوات الأخيرة بصفة متتالية

● تحصل رواياتنا على اهم الجوائز
الأدبية . ويتم ترجمتها إلى لغات العالم .

● مرة أخرى .. إذا كنت من قراء
الابداع الجيد .. فانضم الى «عائلة روايات
الهلال» .



روايات مصرية للجيب

النفحة الجميلة العذبة في ربوع الوطن العربي من مترقه إلى مغربه

روايات مصرية للجيب

لفتح آفاق الثقافة والمعرفة في عقول الأبناء والبنات

المؤسسة العربية الحديثة

تأليف: الدكتور محمد عبد الحليم
تأليف: الدكتور محمد عبد الحليم
تأليف: الدكتور محمد عبد الحليم

Bibliotheca Alexandrina



1062979